

# مهّد الحضارة الغربيّة في الشرق الأوسط

ترجمة: فاطمة عصام صبري

بقلم: د. جورج سارتون

اطلعت السيدة فاطمة عصام صبري في مكتبة جامعة دمشق على محاضرة الدكتور جورج سارتون التي عنوانها « The Incubation of Western Culture in the Middle East » وأعجبت بمضمونها الذي ينوّه بالشرق الأوسط ويعتبره مهّداً للحضارة الغربية . وقد عمدت منذ مدة فنقلتها الى العربية . ثم تبين أن الدكتور عمر فروخ قد سبق وترجمها الى العربية وأدرج حواشيها في الترجمة نفسها ونشرها بعنوان « الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط » فتمهلت في نشرها . وقد رأينا نشر ترجمة السيدة فاطمة توكيداً لمضمون المحاضرة وتيسيراً لمقارنتها بالترجمة السابقة ودفعاً لبعض المغامز التي تؤخذ على المؤلف ، مع أنه من أكثر المستعربين انصافاً للحضارة العربية الاسلامية ومن أشهر مؤرخي العلوم في العالم .

## □ مقدمة :

تزداد قيمة المعلومات التي تضمنتها هذه المحاضرة والحواشي التي تذيّلها بالرجوع الى كتاب المؤلف ، « المدخل الى تاريخ العلم » ( ثلاثة أجزاء في خمسة مجلدات ، نشرها معهد كارنيغي في واشنطن عام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ ) ، وسترد الإشارة الى هذا المرجع هنا بلفظ « Introd. » ، وكذلك بالرجوع الى بحوث ظهرت في مجلة « ايزيس » وهي مجلة مقصورة على تاريخ العلم ( واحد وأربعون جزءاً ، بلجيكة وكمبريدج ١٩١٣ - ٥٠ ) . وثمة أيضاً مقتطفات قليلة وردت في نص المحاضرة ولم توضع بين قوسين وهي مأخوذة من مقال للمؤلف بعنوان : « التراث العلمي العربي » أسهم به في كتاب وضع احياء لذكرى المستشرق المجري الكبير اغناس غولديزهر وعنوانه ( في ذكرى غولديزهر ، الجزء الأول ص ٥٥

★ نص المحاضرة التي القاها الدكتور جورج سارتون الأستاذ في جامعة هارفرد ، بتاريخ ٢٩ آذار سنة ١٩٥٠ م ، في مبرج كوليدج من مكتبة الكونغرس ، برعاية مكتبة الكونغرس نفسها ومؤسسة جورج ك. كايزر .

٧٢ - بودابست ١٩٤٨ Ignace Goldziher Memorial Volume ) . وكل رمز مثل XII-2 يرد بعد اسم العلم ، يعني أن العلم المسمى قد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وإن مقالة قصرت عليه في كتاب المؤلف « المقدمة » .

وقد اتبع المؤلف في كتابة الأسماء العربية القواعد نفسها التي جرى عليها في « المقدمة » والتي تداولها العلماء الذين كتبوا بالانكليزية على وجه العموم . ونسخت تهجية كل كلمة بأمانة دون محاولة لتبيان طريقة لفظها التي ربما تفاوتت من بلد عربي إلى آخر . وبصورة خاصة لم أحاول محاولة ما أن أشير إلى ادغام أداة التعريف بأول حرف من الكلمة المحلاة بها ولا إلى وصل لفظ بلفظ في كلمة مركبة ، ذلك أن العالم باللغة العربية لا يحتاج إلى مثل هذه الاشارات ، وغير العالم بها لا داعي لايقاعه في الحيرة . وهكذا كتبنا « Dār al-Salām » لا « Darussalam » و « Ibnal-Nafis » لا « Ibnunnafis » فهذه نقاط ينبغي على المتكلم أن يلم بها وربما لا يسع الكاتب أن يشير إليها . وقد أضيفت الحواشي والمصادر بغية أن تعين القارئ على مراجعة مقالات المحاضر وأمل أن تساعد على مواصلة البحوث .

جورج سارتون

### مهد الحضارة الغربية في الشرق الأوسط

أقدر الشرف الذي توليني إياه مؤسسة جورج ك . كايزر بتسميتي أول محاضر لها، وأعتبر دعوتي للكلام في هذا المنتدى اللطيف الذي يرجع الفضل فيه إلى كرم السيدة اليزابيت سبرينغ كوليدج مزية كبيرة . لقد شيدته السيدة كوليدج للموسيقين وعشاق الموسيقى فأرجو ألا تكون محاضرتي غير لائقة به . أنا لست موسيقياً مبدعاً ولكنني وقفت سنين طوالاً من حياتي وأنا أسبغ مسحة التألف على البون بين العلم والثقافة الإنسانية وأشرح وجهات الاختلاف بين الشرق والغرب، فليس في الأرض ولا في السماء موسيقى تعدل في جمالها توافق القلوب الصديقة أو المتحابية .

لعلكم تعلمون أن المؤرخين القدماء يطيّب لهم أن يبدؤوا اعتباراتهم التاريخية من أول البداية بآدم وحواء . وعلينا أن ننهج على غرارهم ، لأن « شجرة معرفة الخير والشر » ( سفر التكوين ٢ : ٩ ) كانت قائمة في وسط جنة عدن . لقد دارت مناقشات طويلة بين الباحثين ( ولن تبرح تدور ) عن موقع هذه الجنة الدقيق ولكننا لا نخطئ إذا قلنا أنه في مكان ما « بالشرق الأوسط » .

لنقف هنيهة في ظل تلك الشجرة لأن الوقوف يذكرنا بجزء آخر من الحكمة القديمة. ذلك أن جنة عدن أو الفردوس هي دار الكمال التي ضيعها آدم وحواء حين أخرجنا منها . لقد جرى أكثر الشعوب القديمة على أنه كان في الماضي البعيد عصر ذهبي فسد الناس بعده شيئاً فشيئاً . رأى الشاعر اليوناني القديم هسيود مثلاً أن عصر الذهب

الذي كان عصر السلام والكمال تلاه عصر الفضة ثم عصر الصُّفر ثم عصر الحديد (١) .  
وإذا تابعنا تأملاته لزم أن نكون الآن في عصر اللدائن ( البلاستيك ) أو في عصر النفط ،  
أفتكون تلك النهاية أم بداية عصر جديد ؟

حتى ان عبقرية كالفيزيائي الهولندي سيمون ستيفن ( ١٥٤٨ - ١٦٢٠ )  
آمن بوجود عصر أسطوري للعلم والحكمة في الماضي ، لعل من الممكن استعادة مجده  
بوسائل متنوعة كاستعمال اللغة الهولندية مثلاً (٢) .

بتعبير آخر لم يؤمن القدماء بالتقدم ايماننا به اليوم ، بل كانوا بالأحرى يؤمنون  
بالتقهقر وبأنه بعد العصر الذهبي الذي وجد قبل زمن طويل في الشرق الأوسط ما فتىء  
النوع البشري يتحدر من السوء الى الأسوأ . ولقد شذ استثناء واحد عن هذه القاعدة  
وهو رجل بلغ به التفاؤل حد الايمان بالمستقبل . ذلکم هو الفيلسوف الروماني العظيم  
سينيكا القرطبي ، الذي عبر عن حقيقة التقدم في مجال المعرفة تعبيراً واضحاً جداً (٣)  
ومما لا شك فيه أن التقدم في هذا المجال أمر محسوس . ان وجوه النشاط العلمي  
هي وحدها بين الأعمال الانسانية تتواتر وتتقدم ، ولهذا السبب يجب أن يتركز  
تاريخ النوع البشري في تاريخ العلم .

وقد اتسعت فكرة التقدم شيئاً فشيئاً في العصور الحديثة فتجاوزت مضمار العلم الى  
حياة الانسان بأسرها ، ووصل هذا الاتساع الى ذروته في عهد الملكة فيكتوريا . فقد شاع  
في ذلك الوقت اعتقاد عام بأن العالم يسير يوماً بعد يوم نحو حياة أفضل ، وان النوع  
البشري وإن كانت روعته مصائب متلاحقة كالمرض والفقر والخطايا أو داهمته كوارث  
عارضة كالسيول والسنين المجدية والحروب فقد كانت تلك المصائب تعتبر جانحة نحو  
الضعف والندرة . وان جليلات الكوارث يمكن في آخر الأمر تحايلها . قلما كان يمكن  
صفو الناس اذ ذاك أمر ، ونعمت الطبقة الرفيعة والطبقة المتوسطة في انكلترة وأمريكة  
بيسر لم يجرؤ على نكرانه الا النزر اليسير من الناس . وكان أهم اعتراض على هذا  
التفاؤل الغامر ما أورده ادوارد كاربنتر Edward Carpenter ( ١٨٤٤ - ١٩٢٩ )  
في كتابه ذي العنوان المتحدي « المدنية سببها وعلاجها » (٤) .

ومن الطريف حقاً أن المصلحين الذين كثيراً ما نددوا بمصائب المجتمع ومظالمه كانوا  
متحمسين كبقية الناس يؤمنون مثلهم بأن العالم ( على سؤه ) يتقدم يوماً بعد يوم .  
بل ان رجال العلم اذ ذاك تجاوزوا في تفاؤلهم حدود الحكمة . بيد أن الكشف الثورية التي  
تمت في نهاية القرن الماضي وغرة هذا القرن هشمت ذلك الاطمئنان العلمي وغداً أفاضل  
رجال العلم أقل ثقة من أقرانهم في الماضي وأكثر تواضعاً (٥) .

وقد تزعزع هذا التفاؤل الصلف عند أولئك المؤسرين من الناس في ابان الحرب  
العالمية الأولى ثم انهيار تقريباً في غمار الحرب الثانية . وها نحن أولاء قد عدنا الى موقف  
أقرب من الصواب .

ان التقدم لا يقتصر على مجال العلم وحده حيث يبدو واضحاً وانما يتجاوزه الى مجالات أخرى متعددة ، ولكن يجب ألا نغالي في التفاؤل ذلك لأن كل تقدم اجتماعي اذا وجد كان دائماً معرضاً للزوال وقد تساوره الكوارث فتقطع عليه سبيله أو تودي به . وقد يكون التقدم على مر الزمن حقيقة واقعة لا ارتياب فيها وأكيدة ولكن حياتنا شوط قصير وربما لا يساعدنا الجد أن نشهد ذلك التقدم ، ان المدنية ليست مرضاً بل هي توازن دقيق جداً قد ينقلب فيمسه الاختلال بطرق شتى . وكلما ازدادت المدنية اشتباكاً كان التوازن الذي ترتكز عليه أكثر وهناً وأسرع عطياً ، وكلما سمت علواً كان انهيارها أعظم ، لقد كان انهيار ألمانيا واليابان عبرة للمعتبرين .

وعلى أية حال اذا شئنا أن نتفهم تاريخ النوع الانساني أي أن ندرك كنهه فان علينا أن نركز انتباهنا على عناصر التقدم فيه أي على تكامل العلم . فتاريخ العلم ( أو تاريخ المعرفة ) يجب أن يكون نواة كل تاريخ للحوادث الانسانية . والانسان يميزه عن سائر الحيوان ذلك الاهتمام المتقيد بالخير والعدالة والجمال والحقيقة ، فان هو فقد اهتمامه بأي من هذه القيم الروحية فانه لا يعدو أن يكون بهيمة ، بل هو أشد البهائم قدرة وأعنفها قسوة . ولذلك يكون أهم فصول التاريخ تاريخ الدين وتاريخ الفن وتاريخ العلم . على أن التقدم في تاريخ العلم وحده من فصول التاريخ تلك كلها يبدو ملموساً وأكيداً ولذلك لزم أن يتبوأ تاريخ العلم مكان الصدارة في صورة التاريخ كله . وعلى هذا يكون تاريخ العلم قد بدأ حقاً فيما تواضع الناس على تسميته بالشرق الأوسط مع أنه يستحيل الجزم في أي جزء من الشرق الأوسط استهلكت تلك البداية بالجزء الغربي منه أي مصر أم بالجزء الضارب الى الشرق أي ما بين النهرين (٦) .

ان ديننا لمصر وبلاد ما بين النهرين لجسيم . جسيم حتى ان أوجز خلاصة عن مآثر هذين الشعبين الموهوبين لا تستنفذ في هذه المحاضرة . حسبي هنا أن أذكركم بهذا الأمر وهو ان كلا الشعبين كان أول من وجد وسيلة للكتابة . وأغلب الظن ان هذا الكشف المدهش كان أصيلاً في كل من البلدين . وأيا كان الأمر فقد كان نهجاً في الكتابة متفاوتين : اخترع المصريون الهروغليفية للكتابة لغتهم واكتشفوا أفضل مادة للكتابة عرفت في العصور القديمة وهي البردي ، كانت صفحاته المصقولة تيسر على الكتّاب أن يزاووا فنونهم على أكمل وجه . على حين اكتفى السومريون بمادة أفقر جداً من البردي وهي ألواح الفخار فحددت هذه الألواح صيغة خطهم المسماري . ومع ذلك فقد أتقنوا الكتابة عليها حتى غدت اللغة البابلية والكتابة المسمارية قبل نهاية القرن الخامس عشر ( ق . م ) مطبعتي السياسة الدولية . كذلك استعمل هذا الخط للكتابة لغات متعددة في آسيا الغربية . ثم أفضى استعمال البردي الى اختراع المجلدات أو الكتب في حين كان لألواح الفخار امتياز عظيم وهو أنها لا تتلف (٧) ، الا أن هذه الألواح كان يبقى بعضها منفصلاً عن بعض ، فلم يكن يسيراً ضمها معاً ( كما يتيسر ذلك لصفحات البردي ) ، وعلى هذا لم يكن عند البابليين كتب كالتى كانت عند المصريين ولكنهم عوضوا ذلك النقص باختراع وتجويد مبكرين في انشاء السجلات والمكتبات المنظمة .

يعرف معظم الناس عن العبقريّة المصريّة أكثر مما يعرفون عن العبقريّة البابليّة .  
فقد خلّدت عجائب العمارة في الهندسة المصريّة كالأهرام والمسلات والمعابد العظيمة على  
حين درست الأبنية الآجريّة في ما بين النهرين أو شوهرتها صروف الزمان . والحق أن  
المسلات العديدة تقف في كثير من عواصم أوروبا وفي نيويورك أيضاً (٨) شاهدة تعلن  
تلك العبقريّة المصريّة .

ندين لكلا الشعبين بفجر الفن والأدب والرياضيات والفلك والكيمياء وبكثير من الصناعات  
بل اننا مدينون لهم ديناً عميقاً بكتابتنا المقدس وديننا وحقوقنا وسجاينا الخلقية .

ولقد كان عسيراً قبل هذا القرن قبول هذه الفكرة وهي أن مهد المدنيّة الغربيّة انما  
يقع على شواطئ النيل والفرات ، بيد أن هذه الحقيقة أصبحت اليوم ساطعة جداً ،  
ونحن نستطيع أن نجزم بلا تردد فنعلن أن العلم الغربي قد ولد في تلك البلاد المجدودة .

ومنذ عهد غير بعيد حسب الباحثون أن جذور المدنيّة الغربيّة ينبغي أن تلتمس في  
اليونان للعلم وفي فلسطين للدين ولم يحاولوا أن يذهبوا الى أبعد من ذلك . واليوم نعرف  
أن اليونان و اليهود هم جميعاً مدينون للمصريين وللبابليين بل ربما أخذوا أيضاً عن شعوب  
أخرى رائدة (٩) .

فالعلم اليوناني لم يكن بدءاً جديداً وانما هو استمرار لجهود يرجع تاريخها الى أبعد من  
الفي عام وراء ذلك على الأقل . لدينا مؤلفات مصريّة مفصلة في الرياضيات والطب يعود  
تاريخها الى القرن السابع عشر (ق.م) غير انها مستقاة من كتابات أخرى تقدمت عليها  
أيضاً بعدة قرون . ويتحدث أطباؤنا عن أبقرات على أنه أبو الطب وخير لهم أن  
يتذكروا أن أبقرات لا يقف في أول طريق الطب بل في منتصفه بين الطبيب المصري  
القديم أمحوتب وبيننا (١٠) .

ان أقدم علماء الطبيعة بين اليونان ( هم الذين كانوا يدرسون الطبيعة ) وأقدم  
فلاسفتهم ( محبي الحكمة ) لم تتألق نجومهم في أوروبا بل على شاطئ آسيا الغربي  
والجزر المجاورة له . كانوا ينتمون الى جاليات يونانية ولكنهم خضعوا للتأثيرات  
الشرقية . كان اليونان أنفسهم يترنون بأبصارهم الى الجنوب وإلى الشرق يلتمسون مهد  
المعرفة والحكمة وكثير منهم من رحل الى مصر وبابل بغية البحث . اني أدعوهم يوناناً وهو  
تعبير يفتقر الى الدقة . اذ شد ما اختلطت العروق مراراً في الشرق الأوسط وشرقي  
البحر المتوسط في غرة الألف الثاني ( قبل الميلاد ) .

لقد حجب المؤرخون الكلاسيكيون عنا النظر في هذه الحقائق . لناخذ مثلاً أقوالهم  
في الحروب الفارسية وأقوالهم عن المآثر المجيدة لموقعتي ماراتون ( ٤٩٠ ق.م ) وسالاميس  
( ٤٨٠ ق.م ) اذ قد تصور هذه الحروب على أنها نزاع بين الاستبداد الآسيوي  
والديمقراطية اليونانية بيد انه من التضليل الكبير أن تعتبر حرباً بين الشرق والغرب .  
ذلك أن الفرس كانوا حلفاء للفينيقيين الذين كانوا يتشبهون بالغربيين تشبه يهود العصر

الحاضر بهم في حين كان كثير من اليونانيين يترسمون خطا الشرقيين . ولم تكن تلك الحروب كذلك نزاعاً بين الآريين والساميين لأن الفرس كانوا كأغلب اليونان آريين على حين كان حلفاء الفرس الفينيقيون ساميين ، وكذلك كانت الامبراطورية الاخامانية تركيياً مشتبكاً من عروق الشرق الأوسط وشعوبه ، امتزجت جميعاً مراراً في ابان ألوف السنين . وكانت الآرامية هي اللغة العامة في تلك الامبراطورية وهي لغة سامية . يجب ألا يغرب عن بالنا أن الشرق الأوسط هو أرض تقع في ملتقى سبل متعددة . وإذا دعيت بلادنا أحياناً بالبوتقة فإنه لوصف أشد انطباقاً على الشرق الأوسط مع فارق كبير هو أن أمريكا كانت بوتقة زمنياً ينيف قليلاً على مثني عام على حين كان الشرق الأوسط كذلك موطناً لامتزاج الشعوب مدة أطول بعشرين مرة على الأقل .

لنعد الى العلم اليوناني . لقد تخللته تأثيرات شرقية متنوعة ايرانية وبابلية ومصرية . أمثال تلك التأثيرات يمكن أن نتقفاها في كتابات أفلاطون فضلاً عن كثير من الكتاب اليونان الآخرين الذين بدا الأثر الشرقي فيما كتبوه أشد وضوحاً (١١) .

ولو أمكن اجراء مسح لجميع الأفكار الشرقية التي تتضمنها الكتابات العلمية اليونانية لكان ذلك مفيداً بيد انها مهمة طويلة ليس بوسعنا الا التنويه بها في الوقت الحاضر .

بدلاً من ذلك يجب علينا الآن أن نهجر الماضي البعيد ونحلق طوال القرون حتى نصل الى القرن السادس الميلادي ولنقل على وجه التحديد الى سنة ٥٢٩ التي أهرمها القدر حين أغلقت أكاديمية أثينا وافتتح ديمونت كاسينواذ ليس بوسع المرء أن يجد تاريخاً أكثر ملاءمة من تلك السنة ليكون الحد الروحي الفاصل بين عهدين اصطلاح على دعوتهما العصر القديم والعصر الوسيط . في ذلك الوقت كانت كنائس الشرق الأوسط المتعددة المارونية والنسطورية والجريجورية والقبطية والحبشية واليعقوبية (وهذه الأربع الأخيرة تؤمن بالطبيعة الواحدة في المسيح (١٢) ) قد توطدت أركانها وبعدت كثيراً عن حظيرة الكنيسة الرئيسية .

وزاد الحال سوءاً أن وحدة تلك الحضارة تمزقت شطرين بالانشقاق المشتد بين الكنيسة البيزنطية أو الأرثوذكسية في الشرق والكنيسة الكاثوليكية في الغرب .

وكثيراً ما يتردد الكلام اليوم على الستار الحديدي الذي يفصل شرقي أوروبا عن غربها فمثل هذا الستار فصل لمدة طويلة في العصر الوسيط بين العالمين اليوناني واللاتيني (١٣) .

وفي ختام القرن الثامن كان ذلك الانقسام تاماً والخصومة مستحكمة بين اليونان واللاتين حتى ان اللاتين لما أرادوا أن ينهلوا من ينابيع الحكمة القديمة آثروا أن يتعلموا اللغة العربية على اللغة اليونانية .

ولكنني أجدني مسرعاً في الرواية . اذ يجب علينا أن نتوقف لحظة لنقص ولو باختصار حادثاً من أخصب حوادث تاريخ الانسانية وهو مولد الاسلام .

ولهذا الغرض يجب أن نرحل الى جزء من أقل أجزاء العالم شهرة الى الجزيرة العربية أرض العرب ولعل وصفاً لها يكون شائقاً • سأقتصد في ذلك الحديث معتمداً على أنكم بلا ريب تلمون بالأمور الجوهريّة من قبل بل لعل منكم هنا من يعرف عن الجزيرة العربية ما لا أعرفه • كانت الجزيرة العربية الى عهد قريب جداً تعتبر أرضاً من أفقر البلاد على وجه البسيطة • وفي الواقع أن جزءاً واسعاً منها صحراء وقفر يباب مرأها يدعو الوحشة الشديدة • فيا للعجب كيف يلزمنا أن نذهب الى مثل تلك الأرض البائسة المنبوذة لكي نشهد تجلي الوحي الالهي الجديد ! لا شك أنكم تعرفون ذلك الشأن وحسبي أن أنظر ذاكرتكم به •

ولد أبو القاسم محمد القرشي في مكة سنة ٥٧٠ م • ولقد تألم كثيراً لما كان فيه • قومه من الجهل والجشع والقسوة والحاجة الى الوحدة والى الدين • ولما بلغ الأربعين من عمره عام ٦١٠ صدع بالنبوة بعد أن اتسعت تجاربه واتقد صدره بالايمان • وكانت مكة المركز التجاري الرئيسي في شبه الجزيرة العربية ، وكان سكانها جفاة كل الجفاء دب الفساد في طائفة كبيرة موسرة منهم فسلكوا معه ما سلكه أكثر الأقوام مع أنبيائهم ، وبدأ نصحه المترع بالوعيد لا ينسجم ومآربهم ، لم يفتحوا قلوبهم الدعوته قط وها هم أولاء يصمّثون بعد ذلك أسماعهم عنها •

وفي ايلول عام ٦٢٢ أصبح لا يطيق جفاءهم فهاجر مع اتباعه الى مكان آخر يبعد حوالي مئتين وعشرة أميال شمالاً وهو يثرب ، (فدعيت منذ ذلك الوقت بمدينة النبي أو بالمدينة اختصاراً) • وكانت تلك الهجرة الحادث الحاسم في حياته وفي قيام الدين الجديد فقد حددت بداية هذا الدين رسمياً ولم يمض وقت طويل حتى اتخذ زمنها مطلقاً للتقويم الاسلامي •

كان هذا الرسول مثل أنبياء (العهد القديم) ولكنه نجح في رسالته نجاحاً لا يضاهيه فيه نبي منهم • وكانت الآيات التي يوحى بها الله اليه تستظهر أو تكتب بياناً عربياً رائعاً • وجمعت أخيراً في كتاب سمي القرآن (أو المصحف Recitation) وهو كتاب الاسلام المقدس جمعه بعد وفاة الرسول بقليل في سنة ٦٣٢ أحد أمناء سره (كما نقول اليوم) وهو زيد بن ثابت ثم أعاد نسخه عام ٦٥٠ وكانت إعادة النسخ هذه نهائية •

يتألف القرآن من مئة وأربع عشرة سورة رتبت حسب أطوالها المتناقصة الا فاتحة الكتاب وهي سورة قصيرة تتلى في أول كل صلاة (وهي ركن الصلاة يتلوها المسلمون كما يتلو المسيحيون « أبانا » ) • والقرآن أقصر من (العهد الجديد) ويختلف عنه في ملامحه فهو يشتمل على لباب العقيدة الاسلامية من ايمان وقصص وشريعة وعبادة • وسوره الجميلة فائقة الجمال حقاً • فالرسول كان متعبداً وعالماً بالله ومشجعاً ورجلاً عملياً ومن أعظم الشعراء في الأدب العالمي (١٤) وأطلق على الدين الجديد اسم الاسلام ، ومعناه أن يسلم المرء نفسه الى الله • وسمي معتنقوه المسلمين (من المصدر نفسه) • فالدين الجديد بسيط جداً ووصاف جداً كما أوحى به الى الرسول وكما بلغه العرب ولكنه مثل غيره

من الأديان انتهى الأمر به الى التأخر اذ تسربت اليه خرافات الحمقى من الناس ومجادلات المتحذلقين من علماء اللاهوت ، أما في شكله الأصلي فهو حقيق بالاعجاب .

ان أركان الاسلام الخمسة هي :

١ - الشهادة : أو اعلان الاسلام وهي قولك (أشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله) .

٢ - اقامة الصلاة : خمس مرات في اليوم .

٣ - الزكاة : وهي اعطاء الصدقات (١٥) .

٤ - الصوم : صيام شهر رمضان .

٥ - الحج : الى مكة مرة واحدة على الأقل في العمر وذلك للمستطيع .

وليس في هذا من مأخذ يأخذه عليها الناقد غير المسلم . وهذه الفروض على بساطتها وقلة عددها لم تكن تحتاج الى تحسين ما لأجل توطيد الايمان وتقويته في نفس كل امرئ ولأجل تيسير انتشاره . ان القيمة العملية لايمان المسلم يبرهن عليه قوة ذلك الايمان ورسوخه وسهولة هدايته (على نحو ما تم في افريقية وجزر الهند الشرقية مثلاً) .

لقد كان الرسول قليل الدراية بالكتابة (ان لم يكن أمياً) ولكنه كان ذا عبقرية كبيرة . وقد لقي ابا ن رحلاته في وطنه يقوده القوافل التجارية لاجئين يهوداً ونصارى لهم من المعارف الروحية ما ليس للأعراب . ولما كان الرسول شديد الاهتمام بالدين كان كثيراً ما يتحدث اليهم . وهكذا وقف على علم بأمور متعددة من التوراة والانجيل ومن العقيدتين اليهودية والنصرانية ، وقد تضمن القرآن هذه المعلومات حيث ورد عدد من قصص التوراة مع قدر من التحويل (متوقع في مثل هذه الملابس) (١٦) . هذا ويمكن أن يؤخذ الاسلام على أنه بدعة انشقت عن اليهودية أو النصرانية ، وقد جرى مثل هذا الاعتبار في التاريخ . لقد عرف محمد أنبياء العهد القديم واحترمهم وكذلك عرف مريم البتول والمسيح ولكنه ذكر أنه رسول الله وخاتم النبيين (١٧) وعنى بذلك أنه آخرهم . وفي هذه النظرة يتمم الدين الاسلامي اليهودية والنصرانية . والمنصفون يقولون ببساطة ان الاسلام هو ثالث هذه الأديان العظيمة الثلاثة التي تتنام والتي تنتمي لزمرة واحدة . يبدو الاسلام بأحسن ملامحه كما صورته السلفيون (١٨) في كتبهم مشبهاً لمذهب التوحيد النصراني . ويبدو بأسوأ مظاهره حين تسربت اليه الخرافات على نحو لم تبلغه الكاثوليكية في أحط صورها ولا العبادة البيزنطية . بيد أن هذا لا شأن له بالدين ذاته وانما يرجع الى أن أشد طبقات المسلمين فقراً كانت نسبياً أكثر عدداً وأدهى تأخراً وأقل ثقافة من جماهير العامة في ايطالية أو اسبانية مثلاً .

لنا عودة الى الحديث عن الايمان في الاسلام وعن العجائب التي حققها فور ظهوره ولكن يجب الإشارة أولاً الى عظمة الرسول من نواح أخرى لكي أثبت صحة قلبي .



الأمر الأول هو أن الرسول لم يكن يعرف لغة غير لغته (١٩) فمن الطبيعي اذن أن يعلق أهمية كبيرة على تلك اللغة . ان الذين يتكلمون لغة واحدة لا سيما أولئك الذين هم على حظ ضئيل من الثقافة يجنحون غالباً الى اعتبار لغتهم اللغة الوحيدة الفذة (٢٠) فالوحي الالهي انما نزل على الرسول بالعربية (وليس في ذلك ما يدهشنا !) وعلى ذلك تكون العربية لغة الله (٢١) .

وقد أُلح الرسول على وجوب تلاوة القرآن بالعربية، وبسبب ذلك التصور وصدق تأكيده على شرعية اللغة العربية وحدها ، هياً لهذه اللغة أن تكون احدى اللغات القليلة البارزة في العالم واحدى الوسائل الرئيسية للثقافة في العصر الوسيط وظلت حتى اليوم لغة عالمية الانتشار .

اسمحوا لي أن أستطرد قليلاً فأشير الى أن نشوء ألوف من اللغات وتكاملها مستقلاً بعضها عن بعض لهو سر من الأسرار العظيمة في الحياة . بعض هذه اللغات آية في البراعة والتركيب المنطقي والاشتباك . وانه ليتعذر علينا أن ندرك كيف نمت تلك البنى المشتبكة الجميلة حقاً اذ كان ذلك النمو عفويّاً الى حد بعيد .

لقد وجدت اللغات الطبيعية قبل أن يفكر الانسان في النحو والصرف أو في اللغة بزمان طويل . وأنشئت حقاً فرائد الأدب اليوناني قبل أن تدون كتب النحو اليوناني الأولى ، ويجوز أن يعالج جمال كل لغة بالتحليل والوصف ولكن في آخر الأمر لا يمكن أن يناله التنويه أكثر مما يناله التنويه جمال طير أو زهر . وقصارانا أن نعرب عن اعجابنا بالجمال فنباركه بالتمجيد (أو نقول ما شاء الله) ولقد اتفق أن اللغة الوحيدة التي عرفها الرسول كانت من أجمل اللغات في الوجود (وما كان الرسول ليستشف من وراء الغيب ذلك لو لم تكن له بصيرة إلهية) .

ان كنوز الكلمات العربية زاخرة لا تحصى ، وتكاد سعة ازديادها لا تقف عند حد ، لأن تصريف اللغة المشتبك الأنيق ييسر انشاء مشتقات جديدة من الجذع الأصلي بحسب مقتضى الحاجات (٢٢) .

وكانما قيّض للغة التي لم يتداولها قبل القرن السابع الا البداة الجفاة أن تغدو مطية رئيسية للدين والعلم في العالم . ولما كانت لغة القرآن لغة الله كانت كاملة بالتعريف . وانه لاتفاق رائع أيضاً أن يكون الرسول علماً باسقاء في اللغة (٢٣) قميناً أن يتلقى الوحي الالهي بدقة وأن تكون صيغة ذلك الوحي كالشعر أو بليغة مثله .

لقد ساعد القرآن على توحيد اللغة العربية ، وما كان له أن يمنع نمو عدة لهجات في الاستعمال الشائع لا سيما حين صار يتكلم العربية أبناء الشعوب الأخرى ولكنه هياً من تلك اللغة نموذجاً عالمياً لأرفع مآرب الحياة .

الأمر الثاني أن الرسول قد أعلن فريضة الحج على كل مسلم مرة في العمر على الأقل من استطاع اليه سبيلاً . لقد كان الحج أمراً بسيطاً نسبياً لسكان الجزيرة العربية مواطني

الرسول ، كان رحلة معتدلة الأمد في اقليم اعتادوه وألفوه (والم يكن أحد يفكر اذ ذاك في سكان البلاد الأخرى)(٢٤) ولكن لما أن انتشر المسلمون في بقعة كبيرة من الارض صار الحج عند بعضهم فرضاً ثقيلاً . ربما استغرق عاماً أو أكثر وربما استلزم من المشقات وضروب الحرمان ما هو بعيد عن التصديق . وقد عمل على تأديته عدد مدهش كبير من الناس على رغم كل عقبة . وعلى أية حال فان معظم الزعماء أدوه غالباً أكثر من مرة . فقد حج أبو الفداء مثلاً ثلاث مرات على الأقل ، وحج ابن بطوطة ست مرات (٢٥) . وفي الموسم المخصص لأداء الواجب المقدس هذا تصبح مكة والمدينة وكأنهما مقر مؤتمر عالمي يؤمه أناس وحد بينهم الفكر فيجتمعون فيه ويتبادلون وجهات النظر . وليس الهدف من ذلك أن يلتقي كل حاج أريب بحجاج البلاد الأخرى وحسب فيوسع بذلك معرفته بالعالم الاسلامي أو ما يمكن دعوته (بدار الاسلام) بل كانت تلك المواسم المقدسة بما تثيره من حماسة عامة تقوي أيضاً ايمان الحاج بدينه وبوحدة أمته .

وانه لعسير على المرء أن يتصور وسيلة أبسط وأنجع لضمان الوحدة الروحية لدى الجماعة المسلمة من هذه الوسيلة التي دعا لها الرسول قبل أن ينتشر المسلمون في البلاد الأجنبية والأقاليم البعيدة وتصبح الحاجة الى الوحدة أشد مساً وأكثر اقتضاء أضغافاً مضاعفة . وان دارس الحضارة العربية ليعجب أشد العجب بالسرعة التي كانت تسري بها الثقافة من أقصى دار الاسلام الى أقصاها . فعندما ازدهرت مثلاً فلسفة اخوان الصفا وعلمهم ( في النصف الثاني من القرن العاشر ) في البصرة عرفت ذلك اسبانيا في وقت جد قصير ، وكذلك في المقابل سرعان ما انتشرت في سورية آراء ابن عربي الاشبيلي (٢٦) الذي عاش ( في النصف الأول من القرن الثالث عشر ) اذا قام بدمشق بعد أدائه فريضة الحج وبقي فيها حتى مات عام ١٢٤٠ . وقصارى ما يراه الباحثون في هذا الشأن أن الحج كان في القرون الوسطى يعادل ما ندعوه رحلات البحث وتبادل الأساتذة بين المعاهد وأمثال ذلك في عصرنا هذا ، بل انه ليفوق نسبياً هذه الرحلات أهمية لأن وسائل الاتصال الأخرى ( كالمجلات والصحف ) لم تكن اذ ذاك معروفة . كان طالب العلم يستطيع أن يوفق بسهولة بين طلب العلم وبين الحج فيتوقف في طريقه مواقف متعددة والفترات تتفاوت حسب الاقتضاء ليلتقي بأئمة العلماء في كل بلد ويأخذ عن مشهوري الأساتذة في حلقاتهم بالمدارس المختلفة وربما تزوج ثائية وثالثة كما فعل ابن بطوطة لعل هذا يخوله أن يمتاح من ينابيع جديدة للمعرفة .

الأمر الثالث هو فرض الصيام نهاراً لمدة شهر ، فقد كان اختباراً قاسياً لكل مسلم ووسيلة ممتازة لقياس ايمانه وتقوية ذلك الايمان . ولما كان التقويم الاسلامي قمرياً بحثاً فان شهوره لا تعود في الفصول أنفسها وانما تنتقل تدريجاً من فصل الى فصل . وهكذا فان رمضان ربما عاد في أي وقت من أوقات السنة وهو اذا وقع ابان القبط غدا الامتناع عن الطعام والشراب طوال اليوم اعنائاً بل أمراً عسيراً ولا سيما على من يزاولون أعمالاً يدوية شاقة (٢٧) . كذلك مثل هذا الشأن يمكن أن يصدق على الحج الذي تؤدي فريضته في شهر مسمى لهذا المقصد وهو ذو الحجة فهو يصبح فريضة شاقة تقتضي عنناً حين يقع ذو الحجة في حمارة الصيف . الا أن هذا لم يكن أمراً بالغاً لدى الحجاج القادمين

من البلاد البعيدة فقد يظلون على سفر سنة كاملة حتى يبلغوا مكة المكرمة وكان جهدهم الرفيع أشد مشقة الا انه أكثر فضلا . والحاج اللبيب ليستطيع أن يقدر الفصل الذي يقع فيه ذو الحجة في دورة الأعوام المتتابة وأن يؤقت زمن حجته حسب ذلك وله عندئذ أن يختار أفضل الأحوال يسراً أو أشدها مشقة . فلقد كان الحجيج دائماً فئتين: فئة دمثة الجانب تستحب أداء الفريضة بأيسر الجهود وفئة صلبة العود تؤثر التماس المشقة والتباريح ابتغاء زيادة الفضل والثواب .

لقد أدرك النبي مدى الحاجة الى نظام قوي لدعم الايمان وتنقيته . وشهور الصيام والحج تمرينات تهذيبية من الطراز الأول . ان كثيراً من كنائسنا تدنت الى حد التفاهة بسبب تساهلها واعتقارها للنظام وقلة ما تقتضيه من اتباعها . حسب هؤلاء أن يدفعوا أجور مقاعدهم في الكنيسة لكي يتبوؤا مكانة مامن الصلاح . قد تكون أمثال هذه الكنائس مثرية ولكن لا طائل فيها . فاذا رمت أن يكون اتباع الكنيسة مؤمنين لزمكم أن تفرضوا نظاماً متيناً وتسوموهم تضحيات حقيقية . لقد عرف محمد ذلك حقاً والى أقصى حد وهذه سمة أخرى لمعبريته النبوية .

الأمر الرابع أن الرسول حرم شرب الخمر قبل أن يهيء كشف وسائل التقطير أو شيوع استعمال هذه الوسائل أشكالاً مركزة ومتوافرة من ذلك السم (٢٨) وهنا أيضاً كان الرسول عالماً بالغيب حين توقع آفات لما تذر قرونها اذ ذاك أو لم تكن على مثل انتشارها وخطرها اليوم . فلا مسلم اذن يشرب الخمر وضميره مطمئن فان شربه فهو مرتد أو منافق (٢٩) .

وخلاصة القول أن الرسول ﷺ أذاع عقيدة التوحيد قبل مجيء طائفة الموحدين المسيحيين بما يناهز تسعة قرون وأعلن تفوق اللغة العربية دون أن يعرف لغة غيرها ، وأنشأ مركزاً حضارياً للإسلام قبل أن تبرز شدة الحاجة الى مثل هذا المركز حين بدأ الناس يدخلون في الدين أفواجا من مختلف الشعوب والعروق ، وبأدر الى تحريم شرب المسكرات بزمان طويل قبل أن يصبح أو ( يوشك أن يصبح ) السكر كارثة كما هو في أيامنا هذه . دعوني أؤكد هذه النقطة : لم يتح لنبي أن يحقق نبوته تحقيقاً تاماً كهذا الرسول . وبصورة خاصة قيض تنويهه بعلو اللغة العربية وب حاجة الدين اليها انتشارها الراهن وسيادتها قروناً كثيرة (٣٠) .

ولولا دفاعه الضمني عنها لبقيت العربية لغة قبلية لا شأن لها أو لاندثرت الاندثار كله على نحو ما تعرضت للزوال لغتنا نصارى الشرق الأوسط المقدستان : السريانية والقبطية لما توانوا في أمرها . لم يكن محمد نبي الاسلام وحسب بل هو فوق ذلك نبي اللغة العربية والحضارة العربية بصرف النظر عن العروق والقوميات والأديان التي تنتمي اليها .

لقد قبلت القبائل العربية عموماً الدين الجديد بسرعة مذهلة وهكذا وجدت أنفسها موحدة على أساس متين لأول مرة في تاريخ وجودها . وهنالك برهان أكيد على سرعة قبول هذا الدين وهو وضع التقويم الجديد (الذي لا يعنى به الا المسلمون) وكذلك اتخاذ

تاريخ جديد يعتبر مطلع ١٥ تموز سنة ٦٢٢ أي بعد الهجرة بسبعة عشر عاماً فقط . على حين مرّ خمسة قرون او عشرة على وضع التاريخ المسيحي حتى رسخ . ولكن الذي سهل توطيد التقويم الاسلامي طبعاً انه ورد في القرآن فغداً بذلك جزءاً هاماً في الدين (٣١) وأثناء ذلك اتسعت رقعة الاسلام بالسيف (٣٢) وفي هذا الاتساع كان الحظ (٣٣) والشجاعة حليفين متكافئين عقدا الفار على رؤوس الفاتحين ، فلا يعود الفضل في انتصاراتهم الى قوتهم واتقاد حماسهم ( وان كانا عظيمين ) أكثر منه الى ضعف أعدائهم وتفرقهم . لقد كانت الامبراطوريتان البيزنطية والفارسية تتداعيان منذ قرون . وقد أوهنت كل منهما الأخرى بحروب متصلة ، وعلاوة على ذلك كانت الادارة البيزنطية الكنسية والمدنية ترهق نصارى آسية احتقاراً وظلماً حتى غدا هؤلاء سراعاً في خيانتهم لها الى عدو ذي بأس ، فما كان بوسع كلتا الامبراطوريتين أن تقاوما العاصفة (٣٤) .

وقصة الفتوحات الاسلامية الأولى تحكي الى حد بعيد قصة انتصارات هتلر في أوروبا في عصرنا هذا (٣٥) سقطت دمشق في آذار عام ٦٣٥ ، وخطّت موقعة القادسية في شهر تشرين الثاني من العام نفسه نهاية الامبراطورية الفارسية ، واستسلمت القدس وخضعت بلاد ما بين النهرين سنة ٦٣٧ . وفتحت مصر في ٦٤٠ - ٦٤١ . أما فتح اسبانية فقد تأخر الى سنة ٧١٠-٧١٢ الموافق ٩١-٩٣ هجرية . ثم كل هذا في ابان القرن الاسلامي الأول (٣٦) .

ولكي نقدر هذه الحوادث حق قدرها يجب أن نتذكر أن العرب كانوا اذ ذاك قريبي عهد من حال البداوة . لقد قايس بعض المؤرخين الفتوحات العربية لآسية وأفريقية وأوروبا بهجرة الجفاة المتوحشين (الهون - القوط - الفاندال وغيرهم ) الذين قوضوا الامبراطورية الغربية ( عام ٤٧٦ ) واستمروا في طمس معالم أوروبا قروناً متعددة بعد ذلك (٣٧) . ان البدو لم يكونوا ليختلفوا عن الهنود الجمر ، في الخير والشر ، وانتصارهم على أكثر البلاد تمدناً في ذلك العهد يبدو لأول وهلة متناقضاً كما لو نجح الهنود بالتغلب على الرواد الأمريكيين وامتلكوا أعنة أمورهم وأدخلوهم في خدمتهم . قد يفيد مثل تلك الموازنة لبيان التناقض الكبير بين المنتصرين والمغلوبين ، ولكنه داحض في جوهره . لقد كان الفاتحون العرب في أول أمرهم بداءة أميين الا أن ايماناً ملتهاً كان يوحد صفوفهم ويزيدهم مجداً ، وفي هذا الشأواً أيضاً تحققت نبوة الرسول تمام التحقيق . لم تكن الفتوحات العربية نتيجة صراع بين متوحشين جياع وسكان مدن متداعية ، بل كانت على الأصح نتيجة صراع بين دين جديد وحضارة جديدة ناشئة من جهة وبين عدة مدنيات منحلة سيئة مضطربة من جهة أخرى . كانت الى حد بعيد ضرباً من حرب صليبية مضادة كانت انتصاراً للهلال على الصليب (٣٨) .

تفصيلات هذه الجهود الهائلة تعني المؤرخين السياسيين ولكن الأحوال النفسية القومية التي تتلامح وراءها لدى الجانبين الجانب المغلوب والجانب الغالب موضع اهتمام بالغ عند مؤرخي العلوم . لقد كان الايمان المسيحي يتقوض منذ عدة قرون بسبب المشاحنات اللاهوتية وحرمان عضوية الكنيسة الذي كان يتبادله المسيحيون ، وكان الاسلام من جهة ثانية في ريعان نموه مجتمع الكلمة ، والجنود المسلمون تحفزهم آمال جسام بالثراء والسلطان

في هذا العالم وآمال بالشواب الخالد في العالم الآخر . كان الايمان في الاسلام بسيطاً كريماً معتدلاً ومع ذلك اذا جد الجدد اتقد الى أبعد مدى وانقلب المحاربون اولي بأس شديد يبلغهم الظفر أو الشهادة ، كلاهما سيان عندهم . ومع أن المسلمين كانوا قادرين على التسامح فان قوتهم كانت مترتبة الى حد بعيد على شعورهم بالتفوق الذي بعثه في نفوسهم النصر السريع وعلى الازدراء الأصيل الذي يكتونه لغير المؤمنين (٣٩) .

وما كان بوسع الغزاة المسلمين في مطلع فتوحاتهم أن يغالوا في التشدد لأنهم كانوا بحاجة للتعاون مع الشعوب المغلوبة ، كان أطفال البادية يجهلون كل شيء الا دينهم وشعرهم فلم يكن يسعهم ادارة البلاد المفتوحة، ومن حسن حظهم أن فريقاً ساخطاً بين اليونان والسوريين واليهود والأقباط وأهل العراق والاسبان وغيرهم كانوا راغبين في خدمتهم . وقولنا ان العرب كانوا بحاجة لعون بعض هؤلاء الغرباء تعبير غير كاف ، فانهم لم يكونوا قادرين على أن يصنعوا شيئاً دون ذلك العون. لقد شيدت الامبراطورية الاسلامية (٤٠) بالمشاركة الراضية من قبل اليونان والفرس والأقباط وغيرهم ، نصارى ومجوساً وصابئة ويهوداً . ولم يكن المسلمون بحاجة للعون في مجالي الدين والأدب ، أو هكذا حسبوا ، ولكنهم سرعان ما أدركوا ان الامتياز الثقافي لبعض الأجانب يرجع الفضل فيه الى جهازهم التقني أو العلمي .

وهذا يمهد لبيان ما يمكن أن ندعوه معجزة العلم العربي مستعملين كلمة معجزة لترمز الى قصورنا عن تفسير ما قدموا من منجزات تكاد لا تصدق وليس في تاريخ العالم كله ما يشابهها الا تمثل اليابانيين للعلم الحديث والتكنولوجية في العصر الميجي (٤١) . وهذه الموازنة مفيدة لثمائل الحاليين في الأصل: أدرك قادة الفكر العربي الحاح الحاجة الى العلم اليوناني ادراك اليابانيين قبل جيلين مدى حاجتهم الى العلم الأوربي . كلا الفريقين كان الحاح الحاجة خير معلم له . كلاهما توافرت له الارادة وضرب من الطاقة الروحية تغلب على العقبات الكؤود .

ولم يتح لهم ما يكفي من التجربة ولا من الصبر للتأمل في تلك العقبات فيخشوها . انهم اقتحموها اقتحاماً .

يهون كل شيء على المرء اذا لم يتصور ما فيه من مشقة . يجدر هنا التنويه بأن تكامل العلم العربي الذي جاوز التصديق لم يبدأ الا منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة . كان الرسول عميق الاهتمام بالحياة الأخرى وبقضايا الأخلاق والدين التي تتصل بالحياة الدنيا فشغله ذلك بعض الشيء عن العلم . حاول بعض المدافعين عن الاسلام في العصر الحديث أن يتلمسوا في القرآن طائفة من الآراء العلمية ولكن هذا ليس بمقدورهم الا اذا أعطوا الكلمات مضموناً ما خطر على بال الرسول أبداً ولا على بال أحد غيره مدى قرون (٤٢) ولم يكن الخلفاء الراشدين أكثر عناية بالعلوم من الرسول [ﷺ] ، ويبدو أن الكتاب اليونان الذين في خدمتهم كان المامهم بتصريف الأعمال والادارة أكبر من المامهم بالعلوم كما غيروا منذ حين عاجزين عن تقدير أعمال أجدادهم الفكرية . وبالجمله لم يوجد

علم يمكن التحدث عنه في المدينة أو في مكة أوحى في دمشق ، ولم تظهر معجزة النهضة العربية قبل قيام الخلافة العباسية في بغداد . فما الذي حدث هنالك ؟ لقد نشطت العبقريّة العربية بفعل الخميرة الإيرانية إذ كانت المحاسن العربية والفارسية ( والعيوب كذلك ) متتامة . ويرجع الفضل في معجزة العلم العربي الى تفاعل المعزومة والمجد العربيين والايمان الاسلامي بالفضول والتفلسف الفارسيين . ولوضع هذا القول في صيغة أعم نقول :

ان العلم العربي كان ثمرة لقاح العبقريّة السامية بالعبقريّة الإيرانية (٤٣) . ولعل هذا القول عام جداً وبعيد من أن يكون قولاً محكماً دقيقاً ولكنه يساعدنا بوجه التقريب على تفهم ما تم حدوثه في بغداد . فقد استطاع الحكام المسلمون خلال قرنين من الزمن (٧٥٠-٩٥٠م) أن ينقلوا المعرفة اليونانية الى اللغة العربية بواسطة رعاياهم الذين يتقنون عدة لغات وأكثر هؤلاء نصارى ويهود .

لقد حاول بعض المؤرخين أن يخفّضوا من شأن هذه المنجزات الكبيرة مدعين بأنه لا أصالة فيما قدمه العرب وانهم ليسوا سوى مقلدين . ومثل هذا الحكم خطأ كله . ذلك انه من وجه ما لا شيء أعمق أصالة من ذلك السغب الشديد للمعرفة الذي كان يلج بالقادة العرب . لقد كانوا حقاً في حاجة مباشرة الى جزء من تلك المعرفة للإدارة والحكم ولكنهم تجاوزوا بسرعة المرحلة النفعيّة الى مرحلة أخرى أسمّى منها . قد يقول المرء ان الطب معرفة عملية ومثله الفلك اذا اتصل بمأرب التنجيم ولكن العرب ترجموا كثيراً غير ذلك في الرياضيات والفلسفة التي لم تكن تعد ذات نفع الا بأعلى الاعتبارات الأفلاطونية . وقد يقول معترض أيضاً ان أكثر أولئك التراجم كانوا أجانب غير مسلمين بل كانوا غالباً من غير العرب . وعلى هذا كان كل فضل في هذه الترجمات يعود اليهم لا الى رؤسائهم .

كلا انما الفضل لكلا الفريقين . ولقد كان أكثر أولئك التراجم أجانب لسبب بسيط وهو ان الخطة تستلزم درجة من معرفة اللغات لم تتوافر للفاتحين المسلمين . فلكي يترجم المرء من لغة الى أخرى يجب أن يتقن كلتا اللغتين . وأمثال تلك الكفايات التي كان يتحلّى بها أولئك الأجانب كانت لازمة ولكنها غير كافية . وبصورة عامة لا يتم عمل لا سيما اذا كان عملاً طويلاً ومفروضاً الا اذا كان ثمة من عقد العزم على أدائه . وكفل الباحثين الذين يقومون له . لقد كان الزعماء العرب تواقين الى انجازه متهيئين لتيسير سبل ذلك الانجاز . ولهذا كانوا كثيراً ما تجري المنافسة الكريمة بينهم في هذا المضمار فالمبادرة الى ذلك اذن كانت مبادرتهم .

يحسن أن نتوقف قليلاً لنسأل أنفسنا : « ما التقليد ؟ » نحن كلنا نقلد بالطبع آبائنا ومعلمينا وأبطالنا . أما الأديباء فيسيؤون التقليد ، فهم ينسخون ظواهر الأشياء وأما العباقرة فيحسنونه ويبدعون أشياء جديدة . وهدف التربية الحقيقي هو المحاكاة الحكيمة لأفضل الأمثلة ، محاكاة المناهج لامحاكاة النتائج وقد تم التقليد العربي في عدة مراتب وعلى عدة أنواع منها الصالح ومنها الطالح .

ولقيت خطة ترجمة المؤلفات الفلسفية والعلمية من اليونانية أو السريانية الى العربية صعوبات جمة . كان التراجم الأوائل حتى المتأخرون كحنين بن اسحاق ( في النصف الثاني من القرن التاسع ) يضطرون الى اشتقاق الفاظ جديدة للاعراب عن أفكار لم يسبق التعبير عنها من قبل في لغتهم . كان المترجم اذا عالج مثلاً أفلاطون أو أرسطو أو أقليدس أو أرخميدس أو أبقراط أو جالينوس أزمه أن يجد مصطلحاً جديداً وهو اما أن يلجأ الى تعبير مسهب واما أن يكتب اللفظ اليوناني بالخط العربي لدى التعذر . ولكن واهماً للطواعية المعجبية في اللغة العربية اذ يسرت نسبياً - كما اشرت انفاً - اشتقاق سلاسل لا تتناهى من الألفاظ العربية الجديدة الممتازة تتحدر من أرومات قديمة ومع ان هذه الألفاظ لم ترد في القرآن ولا في الحديث فانها توائم روح اللغة حتى ليتصعب أحياناً ادراك جدتها . ويميل الظن بالمرء الى أن هذه الألفاظ كانت قديمة بقدوم اللغة نفسها انها لم تكن مستعملة من قبل ولكنها كانت موجودة بالقوة (٤٤) .

وتمت معظم الترجمات عن اليونانية مباشرة أو من خلال الترجمات السريانية ، وكذلك تم بعض النقل عن اللغة السنسكريتية وربما جرى أيضاً عن لغات شرقية أخرى . ان معرفتنا باللغة السنسكريتية وببعض الاقتباسات الشرقية لا تزال ناقصة لأن الباحثين المحدثين يتقنون كلا من العربية والسنسكريتية ( والفارسية والصينية وغيرهما ) . هم قلة . وهذا يبرز جانباً آخر من العبقرية العربية ومن ابتكارها . اذ لم يكتف العرب بالمصادر اليونانية ( بل أشك في أنهم أدركوا تفوقها الفاعر منذ البداية ) وانما كانوا ظمأ لكي ينهلوا من كل مورد . ثم لم يلبثوا أن شرعوا يمثلون هذه المعرفة ويحولونها الى شيء جديد ، ويجنون منها ثماراً جديدة .

وأعظم ما ابتدعه العرب في الرياضيات والفلك كان : علم الحساب الجديد وعلم المثلثات الجديد . ومما يجدر التنويه به انه كان لكل من هذين العلمين أساس مزدوج : سنسكريتي ويوناني . وكذلك الاقتباسات الطبية من الهند واليونان قد ذكرها علي بن ربن الطبري (٤٥) ( الذي عاش في النصف الأول من القرن التاسع ) في كتابه : فردوس الحكمة . وبعد بضعة قرون يوسع رشيد الدين ( الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر ) ميدان الاقتباس حتى الصين مع أنه كتب بالفارسية أكثر مما كتب بالعربية . أولئك الذين يجحدون مآثر العرب ويبخسونها حقها ليعترضون مرة ثانية فيدعون أن الاقتباس من مصادر متعددة لا يفضل كثيراً الاقتباس من مصدر واحد . لا جرم ان هذا الأسلوب في الجدل مضلل كل التضليل ولا سيما اذا كان البحث في الرياضيات .

في كلتا الحالتين الانفتحت لم ينسخ الرياضيون العرب الأصول اليونانية والسنسكريتية نسخاً فذلك ما كان ليجديهم نفعا ، وانما أتوا بهذه الأصول جميعاً وألقوا الأفكار اليونانية بالأفكار الهندية . واذا لم تكن هذه ابتكارات فليس في العلم اذن من ابتكار . ان الابتكار العلمي هو ببساطة جمع خيوط متفرقة وحوكها وحبكها نسيجاً جديداً ولا اختراع من العدم . وقد يعترض معترض ان العلماء العرب لم يفهموا كشوفهم تمام الفهم فهم مثلاً ، كما

عرضت (٤٦) ، لم يستعملوا الأرقام الهندية ( العربية ) في عدة مناسبات كان يمكن فيها أن تغدو هذه الأرقام باللغة الفائدة كما في الجداول الفلكية والجغرافية مثلاً ولكن ماضير ذلك ؟ ان نتائج الكشف العلمي ، اذا كان قيماً حقاً ، تكون على نحو من التنوع وبعد المدى بحيث لا يستطيع رجل العلم مهما عظمت عبقريته أن يفهم تماماً ما هو صانعه . وان الأفكار العميقة لا تؤتي ثمراتها غالباً الا على أيدي رجال آخرين أقل شأناً ولكنهم أكثر خبرة في ميادين التطبيق . على ذلك الفرار كانت أفكار فارادي Faraday التي استثمرها زينوب غرام Zenobe Gramme وكذلك آراء كليرك ماكسويل Clerk Maxwell فقد أُنعت عند ماركوني Marconi .

ولنرجع الى العراق في العصور الوسطى: ان تفرد العلم العربي وخصبه انما يكمنان في كون هذا العلم قد جمع العناصر اليونانية والشرقية وأبدع منها تركيباً جديداً أو جعل مثل هذا الابداع ممكناً في المستقبل . كان يجوز أن ينتقل العلم اليوناني الى الغرب اللاتيني بطريقة أبسط لو لم تكن المسيحية الكاثوليكية منفصلة تماماً عن المسيحية الأرثوذكسية بجدار من التعصب ومن الارتياح والضعيفة . وبسبب وجود هذا الجدار وجوداً مؤسفاً لم يكن ثمة سبيل للاتصال بين العلم اليوناني الغابر والعلم اللاتيني المتأخر الا بأن يعرج ذلك السبيل على العرب . واذا نظرنا الى ذلك من وجهة تكامل الانسانية على أنها كل مشترك لاحت لنا الحضارة العربية الاسلامية ذات أهمية قصوى لأنها تقيم الصلة الرئيسية بين الشرق الأدنى والغرب كما تقيم مثل هذه الصلة بين الشرق الأوسط وآسية البوذية .

وهكذا استقام البرهان على المكانة العظمى التي للشرق الأوسط من حيث هو مهد الثقافة الغربية . ولكن حب الحقيقة يلزمنا أن ندخل قيداً أو نقدم اعتراضاً كما يقول المحامون . ان الحضارة العربية التي كانت الحضارة الرائدة من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر والتي بقيت ذات أهمية باللغة لفترة تمتد ستة قرون أيضاً ( وليست ستة القرون بالمدة الضئيلة ) قد برزت في ذلك المهد . ليس في ذلك من ريب . بيد أن الفتوحات الاسلامية جعلتها تمتد شرقاً الى الهند وآسية الوسطى حتى الصين ، وغرباً الى اسبانية ومراكش أي الى آخر حدود العالم اذ ذاك . فلو سميناهما حضارة الشرق الأوسط فحسب لبدت التسمية غريبة بعض الشيء لأن تلك الحضارة امتدت في العصور الوسطى من الشرق الأقصى الى المغرب الأقصى ولا تنسوا بأنه كان لهذين المصطلحين قيمة مطلقة قبل كولومبس . وفي القرن العاشر للميلاد أصبحت اسبانية ومراكش أي المغرب الأقصى مركزين أصيلين للحضارة العربية ، وبتعبير آخر أن جزءاً أساسياً مما ندعوه بالشرق الأوسط كان اذ ذاك في المغرب الأقصى أي في أقصى الغرب تماماً ! وعلى هذا يبدو لفظ الشرق الأوسط تعبيراً مضللاً . فنحن دائماً شعوب شرقية بالنسبة لجيراننا الغربيين وغربيون بالنسبة للشعوب التي تسكن في الشرق منا (٤٧) ولكننا نقبل هذا التعبير كما نقبل كلمات أخرى كثيرة ليست الا بقايا من الجاهلية الخالية .



لقد بلغت الفلسفة والحكمة العربيتان الذروة بفضل رجلين من المغرب الأقصى . ومن غريب الاتفاق انهما ولدا في غضون سنين متقاربة وفي مدينة واحدة وهي قرطبة التي كانت قد غدت قبل مولدهما بقليل ألمع مدينة في غربي أوروبا والتي كانت المنافسة الغربية لبغداد (٤٨) . ولد ابن رشد في قرطبة عام ١١٢٦ م وولد ابن ميمون بعد ذلك بتسعة أعوام في المدينة ذاتها . ومع ان ابن ميمون قد اضطر أن يرحل الى المشرق بعد ثلاثين سنة من مولده ( سنة ١١٦٥ م ) وانه كتب أكثر مؤلفاته في القاهرة فان هذا لا يبدل شيئاً من حقيقة أمره وهي انه كان مغربياً كابن رشد . على ان ابن ميمون كان يهودياً ولم يكن مسلماً (٤٩) .

لقد كانت العربية حقاً في ابان العصور الوسطى أكبر لغة عرفت حتى ذلك الحين انتشاراً اذ كان يتداولها بالكلام والكتابة أمم كثيرة في الشرق والغرب ثم زيادة على ذلك وعلى خلاف اللاتينية كانت تتداولها أيضاً شعوب تدين بأديان متعددة (٥٠) . لنعد الى ابن رشد وابن ميمون . هذان مسلم ويهودي أتى على أعقابهما بعد قرن مسيحي هو القديس توماس الاكوينى . وهؤلاء الرجال الثلاثة يلخصون فلسفة العصر الوسيط . هؤلاء الرجال الثلاثة العظام ، وقد ولدوا جميعاً في الجنوب الغربي من أوروبا ، يمثلون الأديان الثلاثة البارزة واللغتين الرئيسيتين في العصور الوسطى . ومن اليسير أن نورد أسماء مغربيين آخرين ليسوا قليلين زادوا جلال الحضارة العربية ولكن حسبنا هذا العلمان .

سجلت جهود ابن رشد وابن ميمون بلوغ الحضارة العربية أعلى منازلها ثم بدأت تنحدر باستمرار بعد القرن الثاني عشر . على أن تلك الحضارة ظلت مؤثرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وان كانت في سبيلها الى الانحطاط . وكان من الشاق أن يدرك المشرق الاسلامي ذلك بسبب خيلاء ذاتية تزداد كلما تضاعفت الأعمال الجليلة ( وانها لقاعدة عامة تنطبق على الشعوب كما تنطبق على الأفراد ) ، وكان الغرب أقل ادراكاً كذلك لهذا التدهور فقد كانت مكانة العرب تزداد هناك في حين تتناقص جدارتهم بهذه المكانة (٥١) . وهذه أيضاً قاعدة أخرى من قواعد الحياة . هنالك انزياح أو تخلف دائم بين أعمال الانسان ( أو الأمة ) وبين الشهرة الدائمة ، تأتي الشهرة متأخرة وقد تتأخر حيناً بعد اذ تتوقف الأعمال المجيدة . وكيف لا يكون ذلك ؟ والزمان لامندوحة عنه في المآثر لكي تتاح معرفتها فيه وتقدر حق قدرها .

ان الأعمال المجيدة التي حققتها الشعوب الناطقة بالعربية بين القرنين التاسع والثاني عشر كانت عظيمة حتى انها أعيت أفهامنا . وكذلك كان انهيار الاسلام والعرب مذهلاً بسرعته وشموله مثلما كان نهوضهما . ولن يبرح الباحثون الى الأبد يحاولون تفسير هذا الانهيار كما يحاولون تفسير انحطاط رومة وسقوطها . وأمثال هذه المسائل غاية في التعقيد وتستحيل الاجابة عنها ببساطة .

كثيراً ما قيل ان انحطاط الاسلام الروحي عجل به ضياع سلطانهم السياسي وفي هذا القول بعض الحق ولكن ينبغي الا نبالغ فيه (٥٢) فهو ليس الا جزءاً ضئيلاً من الجواب المشتبك .

ألا ترى أن سلطان الدولة العثمانية بقي كبيراً عدة قرون ومع ذلك لم تبلغ الحضارة في تركية الشأو الذي بلغته في عدة بلاد أوروبية كانت أضعف منها جداً وفي زعر قاتل ازاءها • لقد كان ضعف الايمان الاسلامي عاملاً في دعم سلطان العثمانيين ومع ذلك فانه قوض العلم العثماني (٥٣) • ان الأسباب الحقيقية لكل انحطاط هي دائماً أسباب داخلية لا خارجية • اذا اقتلعت العاصفة بعض الأشجار لا تلام العاصفة وانما تلام الأشجار لخوائها •

لم تزعزع النكسات السياسية ثقة المسلمين بأنفسهم بل على العكس زادت في الواقع من خيلائهم ولكن في طريق خاطيء • فقد غدا البحث العلمي مصدوفاً عنه وليس له حافز بسبب جهل علماء الدين المسلمين واكتفائهم بما ألما به • وتوقف التقدم العلمي بسبب تعنتهم وظلام آفاقهم • وقد استمر ( العلماء ) يقبلون القصة الخيالية التي كتبها علي ابن أبي الحزم ابن النفيس (٥٤) بعنوان ( فاضل بن ناطق ) بمعناها الظاهري • وهي محاكاة لحي بن يقظان التي كتبها ابن طفيل (٥٥) • ألف ابن طفيل ( المتوفى ١١٨٦ ) قصته الحكيمة حين كان الاسلام لا يزال في أوجه أما ابن النفيس الذي مات بعد قرن فانه كان مثلاً لطلائع الانهيار حين قلت المآثر وطما الغرور • وكانت الغاية التي قصدها ابن النفيس في كتابه هي ان يبين أن تسلسل الحوادث في الماضي الاسلامي جرى على نهج لا يمكن تجنبه حتى انه كان يمكن اعادة بنائه خيالا بصورة قبلية • كان وهمه من نوع وهم مسيحي يدعى يوسيبوس (٥٦) آمن أن التفوق المسيحي راجع الى العناية الالهية والى فضيلة ذاتية فيه • وكذلك حسب ابن النفيس أن الأعمال السياسية والعسكرية المذهلة التي قام بها الشعب المسلم كانت مجرد تحقيق لما خطته العناية الالهية (٥٧) •

وقد تواتر البرهان على ان الانهيار الروحي لا شأن له بالهزائم العسكرية ولا بالكوارث السياسية • ففي هولندة مثلاً لم تكن السلطة المادية الا ظلاً للسلطة التي نعمت بها في القرن السابع عشر ومع ذلك فقد ظلت حتى الآن بلداً من البلدان البارزة في ميداني الفن والعلم • وهنالك برهانات مشابهة قدمتها أمم أخرى كبلجيكة وسويسرة والبلاد الاسكندنافية فهي على ضالة قوتها تقود العالم في شتى الأمور الروحية وهي مراكز ثقافية من الدرجة الأولى •

كلا لم يكن انحطاط الاسلام بسبب نقص القوة المادية والتفوق السياسي وضياعهما بل بسبب ان القوة الروحية فيه قد تداعت • ان الشعور بالعزة الذي تضرمه فينا ذكرى أعمال أجدادنا المجيدة هو شعور خطير لا سيما اذا رافقه تقاعس في جهودنا • فالشعب الذي يقوم بالأعمال العظام لا يتبجح بها اذ ليس لديه وقت لذلك وهو على تحقيق أهدافه أشد اكباباً منه على استجداء الاطراء من الشعوب الأخرى • وعندما يهرم أفرادهم وقد أنجزوا ما كان عليهم عمله يغالون في ترديد ذكرياتهم وتمجيد أنفسهم ان هذا ليس أمراً ذا بال في حياة الأفراد القصيرة اذ لا بأس من أن يسمح لهم بوقت قصير يستمتعون فيه بدفع الشمس قبل أن يرحلوا ولكنه - بخلاف ذلك - أمر على جانب كبير من الخطورة في حياة الأمم لأنها اذا بدأت تستريح الى مجدها وتبهاى بماضيها دون أن تمشي قدماً فانها في طريق الانحطاط

تسير وهي في سبيل الضياع . انها تستمر في وجودها لأن القاعدة هي ان الأمم لا تموت ولكن حياتها محكوم عليها بالتفاهة . وهذا تماماً ما حدث للإسلام : توقف الجهد الخلاق ورافقه ازدياد التفاخر وازدراء الآخرين ، وصار النور الباطن كايماً حتى ان ايمانهم أضاع قوته وصفاءه . وحلت الخرافة محل الدين والتعصب مكان الاعتقاد والحسد والكراهية بدل المحبة .

وينبغي أن نذهب بعض الشيء في الكلام على ذلك العامل الرئيسي في الانحطاط ألا وهو الخرافة لأنها أكثر العوامل مخاتلة ، ونماؤها ليس سبباً رئيسياً للانحطاط وحسب وإنما هو أكثر أعراضه وضوحاً . اذا نحن شهدناه يجب أن نحترس ونبدأ بحماية أنفسنا . وما كان بمكنة الناس في العصور الوسطى فهم هذا كما نستطيع اليوم . ان الخرافة تروق دائماً للشعوب الجاهلة التي تريد أجوبة عن أسئلتها أجوبة يكون المرء افون على أتم أهبة التقديمها . هكذا كانت الحال وأبدأ ستكون : عندما تضعف الجهود العلمية تخالط الخرافة العلم نفسه فيكون هذا أمراً مشؤوماً . لقد شرفت المؤلفات العلمية العربية بعيد من الروائع ثم بدأت تنحدر بفيض من المؤلفات التنجيمية والسيمائية (٥٨) والسحرية . ويبدو تسرب فضول السحر الى الرياضيات على أتم شكل في كتاب لمؤلف روحاني من الجزائر يدعى أحمد بن علي البوني ، عاش في النصف الأول من القرن الثالث عشر . ولكن أفضل شرح للموضوع بكامله نجده عند رجل من أبرز مفكري العصور الوسطى في الشرق والغرب وهو التونسي ابن خلدون (عاش في النصف الثاني من القرن الرابع عشر) (٥٩) . تأملوا مثلاً ما كتبه عن الهندسة :

« واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها اضاءة في عقله واستقامة في فكره لأن براهينها كلها بينة الانتظام جلية الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيح ، وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون من لم يكن مهندساً فلا يدخل منزلاً . وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقدار وينقيه من الأوضار والأدران وإنما ذلك لما أشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه » (٦٠) .

ان بيانه هذا على ما فيه من أطناب جدير بالاعجاب أصاب فيه المحز وطبق المفصل . فالخرافات في الفكر الانساني كالقذارة والطفيليات في الجسم مدعاة خزي مرير . ويا ويح الشعوب التي تبتلى بالخرافات والطفيليات فهي لا تدرك خزيها وإنما تميل الى الاستزادة منه وتفرق أنفسها في الحقارة يوماً بعد يوم .

من المناسب أن ننعم النظر في هذا الأمر كما يجدر بنا أن نتسمَّح ازاء تلك الخرافات التي عملت في تقويض الحضارة العربية لأن حضارتنا ليست خالية منها تماماً . فالمنجمون وقرءاء الكف والراجمون بالغيب وغيرهم من العرافين يفلحون في مدتنا الصلفة . والأعمدة التنجيمية في صحفنا تعلن نقص مبادئ وأصحاب الصحف كما تعلن فسادهم (٦١) .

ان مناقشة ابن خلدون للخرافات المختلفة عند المسلمين هو بحث فريد في مؤلفات العصور الوسطى مع أنه على حصافته لم يستطع أن يتحامى تصديق بعضها . وتفاقم الأمر سوءاً بعد عصره اذ حصل اذ ذاك ما يشبه ما ندعوه اليوم بالتفاعل المتسلسل : فانحطاط الاسلام الروحي أشرع الباب الى ازدياد الخرافات . وقد حطم جهل رجال الدين (٦٢) وتعصبهم سدود العقل ، وأنمت الخرافات الجديدة عند الشعب سرعة التصديق وقلة المحاكمة والغفلة والتعصب ، وأفضت الخرافة الى الخرافة وهكذا دواليك . وتفاقت خطورة هذه الحال لأنه في الوقت الذي بدأت تهزل فيه الجهود العربية ويصبح الشعب العربي فريسة سائغة للخرافات المتزايدة كان الشعب الغربي (اللاتيني) يكشف عن سر جديد لمعرفة لا تتناهى وحياة زاخرة ، تلك هي الطريقة التجريبية التي أنشأت حضارة جديدة في بضعة قرون وبعثت فوق ذلك ثورة في العالم كله في العالم الروحي وفي العالم المادي معاً (٦٣) . ولم يكن للشعب الناطق باللغة العربية نصيب في ذلك . بينما كانت الأمم الغربية تتقدم بخطى حثيثة جداً كان العرب مسمرين في أمكنتهم، وهكذا بدأوا يتراجعون بلا رجاء . فالاسلام الذي بارتقائه العظيم رفع العرب الى أسمى الذرى عاد فألقى بهم لما تداعى في عميق الهاوية .

ولكن هذا ليس نهائياً على أية حال ، فالأمور في الواقع تتغير بسرعة . ولقد قادت شعوب الشرق الأوسط العالم مدى حقتين طويلتين طوال ألفي سنة على الأقل قبل اليونان ثم كرة أخرى في العصور الوسطى طوال أربعة قرون أو ما يزيد على ذلك . فليس ما يمنعه من أن تقوده مرة جديدة في العاجل أو في الآتي البعيد .

كان سبب قيادتهم في الحقبة الأولى عبقريتهم الخلاقة؛ كانوا البناة الأول والكتاب الأول ، أفاقوا قبل أن يفيق سائر العالم . أما الحقبة الثانية فكانت أقصر من الأولى وأقل أصالة الا أنها تظل مع ذلك خصيبة غاية الخصب . لقد سبقوا بحضارتهم القديمة اليونان في مضمار المآثر العلمية أو فتحوا السبيل لهذه المآثر فجعلوها ممكنة ثم تغير الأمر فأصبحت الشعوب الناطقة باللغة العربية ورثة العلم اليوناني ونقلتته الى الغرب . ولم يكونوا نَقلَةً لا نظر لهم ولا تأثير يسل على العكس زادوا التراث اليوناني وأورثوا خلفاءهم اللاتينيين تراثاً أغنى . ولا يرجع رقيهم في هذه المرة الى أصالتهم الخلاقة بقدر ما يرجع الى اتقانهم وحماستهم الفذة . لقد أدركوا اذ ذاك ما كانوا قد نسوا من أن المعرفة يجب أن تشاد على قواعد راسخة واذا لم تضرب جذور الحضارة الى عمق كاف فان هذه الحضارة سوف تذوي وتموت . وكانت جذورهم الدينية وافية العمق وكذلك كانت جذورهم العلمية ، لفترة على الأقل ، الجذور اليونانية القديمة . أدرك قادتهم ادراكاً جلياً أن المرء اذا شاء أن يحصل على المعرفة العلمية ينبغي أن يبدأ من جذور أول المبادئ لا من قمة آخر التطبيقات . يسهل قطع سار الناضجة من أعالي الشجر حتى الأبله يستطيع أن يفعل ذلك ولكن الأصعب منه غرس الأشجار السليمة التي تعطي أغزر الثمار في مواسمها . هذا هو الدرس الذي يجب أن يتعلمه اليوم شعب الشرق الأوسط مرة ثانية . لا طريق الى العلم قصير . من اليسير تعليم 'إيكانيك' ولا صعوبة بالغة في تدريب المهندسين ، ولكن اعداد رجل العلم عملية شاقة وطويلة . ان درب العلم صعب لا راحة فيه ولا نهاية له .

ويقتضي الابتكار في العلم والمعرفة من المرء عكوف سنين طويلة ومتواصلة ان لم يستنزف عمره كله . بل ان الحياة ذاتها جد قصيرة وكل رجل علم يورث من يأتي بعده مسائل غير محلولة . ليس من سبب يعوق عرب اليوم على الاطلاق عن أن يضاهوا أسلافهم ويتبوؤوا مركز القيادة مرة جديدة . حقاً ليس هذا سهلاً وهو يزداد صعوبة كل يوم ولكنه أمر ممكن .

لقد تمت انطلاقة جيدة في المضمار الديني دعا لها الشيخ محمد عبده (٦٤) فراق الجو الاسلامي . وكذلك أخذ يهود الشرق الأوسط ومسيحيوه ينهجون نهجاً أفضل من قبل وارتفع مستوى التعليم في عدة بلاد ارتفاعاً ملحوظاً . وكان الفضل في جزء جوهرى من هذه النهضة العلمية يعود للجهود الأمريكية وخاصة الجامعة الأمريكية ببيروت التي كانت منبت الرجال الصالحين والتبع الدائم للارادة الطيبة (٦٥) فهذه الجامعة والمعاهد الأخرى في القاهرة واستانبول وبغداد لم تقدم فقط هباتها الفاتحة بأكرم روح وانما خلقت تنافساً ودياً واضطرت المدارس الأخرى أن تحسن مناهجها . ولا يستطيع المرء أن يفهم المشرفين على هذه المعاهد ولا من يقومون بإدارتها حقوقهم من الشكر لكل ما أولوه من هبات مباشرة وغير مباشرة . ثم ان الاستقلال السياسي قد أعلى المطامح الروحية في كل بلد ولا سبب يقف حائلاً دون تحقق هذه المطامح ما لبثت مدعومة بالأعمال والتضحيات المتلاحقة لا بالكلام وحده . ثمة عديد من المسائل ما برحت بلا حلول ولكن حيث توجد الارادة يوجد السبيل الى الحل وان كان سبيلاً طويلاً يحتاج الى كثير من الصبر . وأهم ما في الأمر ادراك أن النشاط العلمي شديد الصعوبة ، وان على المرء أن يشمر عن ساعد الجد لبذل جهود هائلة . فالذين يضلهم الظن ان الأمر سهل وان بوسعهم مراوغة هذه الصعوبات هم أناس قدر لهم الاخفاق اذ كانت الجهود التافهة تضيع عبثاً .

ليست المدنية مرضاً فيعالج ، انها معركة نضال مستمر . هي معركة ليست مضمونة العاقبة . فحريتنا ومعرفتنا وكل ما في حياتنا من نعم هي دائماً رهن الاختبار . ينبغي أن نواصل البرهان على جدارتنا بتلك القيم والافقدناها . ان تراخينا زلت أقدامنا . لا نهاية لكفاح الظلم والخطأ والقبح والفقر .

أنا لا أزال أو من بالتقدم ايمان سينيكا لا ايمان انصاف المتعلمين الذين يقيسونه بالفاظ التقدم المادي والرفاهية . ان التقدم المادي المحض مهلك بل انه ليس تقدماً على الاطلاق وانما هو نكوص حقيقي . والتقدم الصحيح الذي معناه اصلاح لواقع الحياة لا يمكن أن يتخذ له أساساً الشغف بالآلات والعُدَد بل يجب أن يقوم على الدين والفن وفوق كل شيء على العلم ، على العلم الخالص ، وعلى حب الله وحب الحقيقة وحب الجمال وحب العدالة .

ويتضح ذلك اتضحاً كافياً حين ننظر الى الوراء ، من هم عظماء الرجال في الغابر ؟ من هم أعلام المصلحين عندنا ؟ لمن ندين بنعم حياتنا ومسراتها ؟ كانوا رجالاً من أمثال أفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس في اليونان القديمة وأمثال الفارابي وابن سينا

وابن الهيثم والبيروني والغزالي وابن رشد وابن ميمون وأبي الفداء وابن خلدون في  
المصور الوسطى . لم يعيش أولئك الرجال في معزل عن الحياة الاجتماعية ، وكان الحكام  
والموسرون في أيامهم أعظم شهرة منهم بيد أن الحقيقة تجلت تدريجاً وها نحن أولاء لانذكر  
من الرجال الا هؤلاء وأمثالهم ، أما الملوك والسلاطين والوزراء فقد غدوا نسياً منسياً .  
لقد كان الحكام وموظفونهم يعملون ليومهم أو لعامهم أما العلماء ورجال المعرفة فقد كانوا  
يعملون للخلود . واننا لنشعر شعوراً عميقاً بما ندين به لهم ونقرّ بفضلهم علينا . والذي  
يتضح حين ننظر الى الوراثة ينبغي أن يتضح مثله تماماً حين ننظر الى الأمام فيهدي خطانا  
الى المستقبل .

كثيراً ما يتحدث الناس عن التفاوت بين الشرق والغرب ، هذا التفاوت قائم الا أنه  
أقل أهمية جداً من التفاوت بين المادية والنفعية من جهة وبين المثالية من جهة أخرى . فهذا  
التفاوت الثاني مستقل عن الزمان والمكان . ولقد وجد ويمكن أن يوجد في كل زمان  
ومكان . لعل بعض الناس يريد منا أن نعتقد أن سكان الشرق الأوسط مثاليون وان سكان  
الغرب ماديون وذلك يفسر لم أثرى الغربيون وافتقر الشرقيون . بيد أن هذا بعيد عن  
الحقيقة . ففي الغرب فقر كثير وفي الشرق غنى واسع . ولكن ربما كان التباين على  
وجه العموم بين الفنى والفقر في الشرق أعظم منه في الغرب ، وان أثرياء الغرب عامة أكثر  
كرمًا وحبًا للخير وأعظم حكمة في احسانهم من أثرياء الشرق الذين يتسم سخاؤهم  
بالبهاة والتفاخر .

ومع أن الشرق الأوسط كان مهداً لدياناتنا ومثلنا العليا في العلم والفن فانه من  
الخطأ أن نقول انه اليوم أشد مثالية من الغرب . يصبح هذا القول تملقاً أكثر منه  
صدقا ومثل هذا الملق أذيته أشد من نفعه . في رأيي أن الشرقيين لا يختلفون في الجوهر  
عن أولئك الغربيين . ففي كل بلد يجد المرء درجات السلم تامة . من أوج الولاية الى  
الى حضيض الفساد . ندر من هو صالح جداً وكذلك ندر من هو فاسد حقاً . والغالبية  
العظمى ضحايا الظروف والملابسات ، قد تسمو بهم العدالة واللفظ سمو لا يضاهي  
كما قد يطوح بيسر بهم البؤس والشر والكذب . تبقى المسألة الرئيسية في عالم اليوم (بل في  
كل زمان) مسألة رفع المستوى الروحي للجماهير (٦٦) فإذا أخفقنا في رفع هذا المستوى  
انقلب كل مزايا مدنيتنا المادية عليه ، فحطت منه وحطمت . إذا جعلنا قيمنا الأساسية  
العدالة والاحسان والحقيقة نجونا ، وإذا جعلنا قيمنا الأساسية الراحة والمال حاق بنا  
الهلاك .

ليست المدنية مرضاً ولكن قد يسري المرض والعفونة الى قلوب الفاسدين من  
الناس . ليست المدنية شرقية ولا غربية . لم تلق عصا التسيار في واشنطن ولا قبلها  
في بغداد ، انما تستطيع أن تتوطد حيثما وحينما يوجد الصالحون وتوجد الصالحات  
من الناس الذين يدركون معناها ، ويعرفون كيف يمارسونها ولا يسيؤون تلك الممارسة .  
ان الشرق الأوسط (إذا لزم أن نستعمل هذا المصطلح) كان مهد حضارتنا وهو الذي  
هيا لها أسباب النجاة إبان المصور الوسطى حين كان الستار الحديدي يقسم العالم شطرين .  
نرتو الى ماضيه بعرفان الجميل ونرتو الى مستقبله بالأمل الواسع .

## □ الحواشي :

- ١ - Hesiod : The works and days (lines 109-201) .
  - ٢ - أسماء ستيفن Stevin اسما غريبا Eruditum Seculum أو Erudit Century قرن التبجر .
  - ٣ - عبر سينيك ( في النصف الثاني من القرن الاول ) عن ذلك مرتين على الأقل مرة في رسالة الى لوسيليوس (الرسالة ٦٤ المذكورة في المقدمة ٢٠ ، ٤٨٤ ) ومرة أخرى في مؤلفه Natural questions ( ٧ : ٢٥ ) . كذلك عبر توسيديديس Thucydides ( القرن الخامس قبل الميلاد ) في مطلع كتابه « التاريخ » عن بعض ايمانه بالتقدم ، الا انه كان أقل وضوحا . وان ايمان سينيك بالتقدم العلمي يتلامح بعض الشيء في افكار برنارد الشارتر Bernard of Chartres ( في النصف الاول من القرن الثاني عشر ) حين قال : « نحن بالنسبة الى الاقدمين اقزام تجلس على اكتاف العملاقة » . وقد ذهب هذا القول مثلا . وللحصول على مراجع أخرى لهذا الغرض انظر « المقدمة ( ٣ ، ٨٧٠ ) » .
  - ٤ - عبر عن آراء مماثلة ولكن بقوة وخشونة في عصر متأخر ، اناندا . ك . كوماراسوامي Ananda K. Coomaraswamy ( ١٨٧٧ - ١٩٤٧ ) مثلا في مجموعة دراساته المسماة « Am I my brother's Keeper » ( نيويورك ١٩٤٧ ) . كان صديقي كوماراسومي مبالغا ومتصليا ، ولكن ملاحظاته مع ذلك تستحق التامل وكتبه مترعة بالشواهد والمراجع . ( هذا وعنوان كتابه الآنف جملة مأخوذة من سفر التكوين ٩/٤ وهو جواب قاين للرب لما سأله أين هابيل فقال لا أعلم أحارس أنا لأخي . - المترجمة ) .
  - ٥ - تأمل مثلا التقارير المتواضعة التي قدمها عالمان تركاعمق الأنسر في تطور العلم الحديث ماكس بلنك Max Planck ( Isis 40, 66-69 ) والبرت انشتاين Albert Einstein في ( Introd 3, p.v. )
  - ٦ - لعل العلم قد نما مبكرا في مناطق أخرى كإيران والهند والصين حتى الهند الصينية الا أن معلوماتنا عن ذلك مبهمة ومشتبه ، وعلى أية حال لم يكن تأثير تلك البلاد في حضارتنا مباشرا كآثر الشرق الأوسط .
  - ٧ - حفظت صحائف من البردي ومجلدات كاملة منه بكميات كبيرة بسبب جفاف الاقليم في مصر ولم يكن بالامكان الحفاظ عليها في بلاد ما بين النهرين . اما اللوح الفخار فيمكن أن تبقى في كل مكان وفي كل ظرف الا اذا اتلفت عمدا . وثمة وصف رائع لتلك الألواح كتبه ادوارد شييرا ( ١٨٨٥ - ١٩٣٣ ) في كتابه « كتبوا على الصلصال » . لم يتكلم في هذه المعاصرة على الأجدية التي كان للفينيقيين فضل السبق الي وضعها - المترجمة
  - ٨ - هذه الفكرة وسعها سارتون في مقاله له : « Agrippa, Fontana and Pigafetta. The Erection of the Vatican Obelisk in 1586 » ( Archives internationales d'histoire des Sciences N° 8, 1949, P. 827-54, 14 figs. )
  - ٩ - للامام بمعلومات عامة تتعلق بالعصر ما قبل الهيليني راجع :  
OTTO Neugebauer : Vorgriechische Mathematik (Berlin 1934, Isis 24, 151-53).  
Mathematische Keilschrifttexte (3 Vols. Berlin 1935-37; Isis 26, 63-81, 28, 490-91).  
Mathematical Cuneiform texts (New Havana 1943, Isis 37, 96-97, 231).  
François Thureau Dangin : textes mathématiques Babyloniens (Leiden 1938, Isis 31, 398-425).  
Arnold Buffum Chace : The Rhind Mathematical Papyrus (Oberlin 1927-29; Isis 14, 251-55).  
Georges Contenau : La Medicine en Assyrie et en Babylonie (Paris, 1938; Isis 31, 99-101).  
James Henry Breasted: The Edwin Smith Surgical Papyrus (Chicago 1930, Isis 15, 355-67).  
B. Ebbell : The Papyrus Ebers (Copenhagen 1937; Isis 38, 126-31).
- هذه هي العناوين البارزة فقط ويمكن الحصول بسهولة على عناوين أخرى كثيرة بمراجعة : « مراجع الكتب النقدية في مجلة ايزيس . Critical Bibliographies of Isis » .
- اذ كان الهدف من هذه المراجع افناع القارئ أن ما ورد في النص انما يعتمد على معلومات واسعة . والحق أن معلوماتنا عن العلم في العصر ما قبل الهيليني وافرة ولكن معرفتنا بكيفية انتقال هذا العلم الى اليونان مجزأة جدا وناقصة .

١٠- Jamieson B. Hurry : Imhotep, the Vizier and Physician of King Zoser (2ed London 1928; Isis 13, 373-75 : 14, 226).

مارس امحوتب الطب في مصر في القرن الثلاثين (ق.م) .

١١- للاطلاع على التأثيرات الايرانية

Joseph Bidez, Franz Cumont, Les Mages Hellenisés : (2 vols. Paris, 1938, Isis 13, 458, 62;

J. Bidez : Eos ou Platon et l'orient (Bruxelles 1945 : Isis 37, 185);

F. Cumont : Lux Perpetua (Paris 1949).

وللاطلاع على التأثيرات المصرية والبابلية انظر العاشية رقم (٧) وكذلك

Robert William Rogers (1864-1930).

Cuneiform Parallels of Old Testament (New York 1912). T. Eric Peet (1832-1934). Comparative Study of the literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia Egypt's Contribution to the Literature of the Ancient World. (London 1931).

James Henry Breasted (1865-1935) : The Dawn of Conscience (New York 1933 - Isis 21, 305-16).

١٢- لعل قارئ هذه المحاضرة أكثر دراية بالاصلاح الديني منه بسبل الشقاق القديم في الكنيسة والملاحظات التالية قد تساعده . كان سبب الشقاق الاول الخلاف في الرأي حول طبيعة المسيح أهو انسان أم اله أم هو من طبيعتين ناسوتية ولاهوتية متحدتين فيه ؟ أهو شخص واحد أم شخصان ؟ وجهة النظر الارثوذكسية ترى للمسيح طبيعتين الا انها تعتبره شخصا أو اقنوما واحدا . أما النسطورية فتذهب الى أنه ذو طبيعتين وانه شخصان أو اقنومان . وقد حكم على هذه الآراء بالكفر مجمع افسوس سنة ٤٣٥ . أما القائلون بالطبيعة الواحدة فيأخذون الجانب المقابل في الجدل ويزعمون بان المسيح طبيعة واحدة فقط وشخص واحد وقد حكم عليهم بالكفر مجمع خلقدونية أيضا عام ٤٥١ . راجع كتابي « المقدمة » Introd. اذا شئت التوسع في المعلومات ( ٣ ، ٥٣ - ٥٥ ، ٣٥٧ ، ١٠٥٧ ، ١٨٣٠ ) .

١٣- لقد ناقشت هذه المسألة عدة مرات مثلا عندما بحثت في وحدة بلاد البحر الأبيض المتوسط وفي اختلافها

. (Osiris 2, 406-63, 1936; Chiefly, P. 439-41)

١٤- يريد المؤلف بلاغته العظيمة عليه السلام في أحاديثه النبوية والا فان كلامه هذا هو الجهل المطبق بالقرآن الكريم ويشبه في دعواه تلك كلام المشركين قبل خمسة عشر قرنا حين ظنوا القرآن شعرا - المترجمة .

١٥- الزكاة في الاسلام غير الصدقات ويبدو أن المؤلف قد التبس عليه هذا الامر - المترجمة .

١٦- يبدي المؤلف هنا قلة دراية بحقيقة الدين لانه اذا آمن المرء بالوحي فعندئذ يبدو لنا أن نص القرآن الالهي هو المتواتر الذي لا ياتيه الباطل وأما الكتب الأخرى فهي التي تناولها التحريف والتحويل . وقد ذكر القرآن أنه جاء مصدقا للتوراة ولانجيل يدعم القيم الرفيعة فيهما . هذا ومن المعلوم أن كثيرا من العقائد المسيحية التي تكونت مؤخرا قد سبق اليها القرآن والدين الاسلامي حين وردت في الوحي واستفاد منها الغربيون على طريق الترجمة الى اللاتينية ولكن لا ينتظر من المؤلف غير المسلم أن يقول غير هذا . - المترجمة .

١٧- خاتم النبيين ( سورة ٣٣ ، ٤٠ ) تعبير حمل اليهود والنصارى على اعتبار الاسلام بدعة لأن ما كان يدعو تكميلا للرسالة كان من وجهة نظرهم بالطبع يعد انحرافا .

وفي كتاب الحديث المشهور المسمى ( مشكاة المصابيح ) Introd. ( المقدمة ٣ ، ١٠٦٦ ) ورد على لسان الرسول ما يفسر بانه قبول منه لفكرة الجبل بلائس \*

★ نسي المؤلف أن القرآن الكريم أشار الى طهارة مريم .

١٨- فيما يتعلق بالسلفيين المسلمين راجع ( المقدمة ٣ ، ٤٢٢ ) وانظر كذلك العاشية ٤٧ .

١٩- هذا القول لا يتنافى هو وكون القرآن مشتملا على عدة كلمات ذات أصل أجنبي . وهذا بينه السيوطي مبكرا حوالي

القرن الخامس عشر ( ١٤٤٥ - ١٥٠٥ ) وذكره بصورة أكمل أرثر جفري Arthur Jeffery في The Foreign Vocabulary of the Qur'an (Gaekwad's oriental Series Vol 79, Baroda 1938).

وقد قسم السيوطي الكلمات الدخيلة في القرآن الى احدى عشرة مجموعة : الحبشية ، الفارسية ، اليونانية ، الهندية ،



السريانية ، العربية ، النبطية ، القبطية ، التركية ، الزنجية ، البربرية أما جفري فأرجعها الى خمس وخمسين لغة أو لهجة ! ومن الأهمية بمكان أن يظهر في لغة منعزلة انعزالي اللغة العربية في القرن السابع كلمات دخيلة ولكن لغة شعب متجول ومتاجر كما كان الشعب العربي لا يمكن أن تكون أبدا لغة منعزلة تماما . فقد كان للعرب تجارة مع السوريين والفرس والأحباش حتى أن أعظم الناس تفكيراً في الدين كالثبي نفسه وقعت له مناسبات للتعهد مع المسيحيين واليهود . وتلازم ألوان التماس هذه في كلمات كثيرة من القرآن تلاخذا خفياً بل يجب أن نعترف بأن الرسول كان عالماً بوجود بعض اللغات المقدسة الأخرى كالعبرية والسريانية والنحشية واليونانية .

٢٠- نسي المؤلف في العصر الحاضر حالة الأمريكيين والانكليز الذهنية حيث لا يكادون يعرفون الا لغتهم - المترجمة .

٢١- كلما تكلم المؤلف على الاسلام أبدى زيادة جهل وعلى الأقل نسي كل الغلاف الطويل العريض الذي ثار في تاريخ الكلام حول كلام الله والأفضل أن يرجع الى بسائط كتب التوحيد المتداولة بين المسلمين - المترجمة .

٢٢- انظر مثلاً مصدر ( س ل م ) . سلم بمعنى نجا من الخطر ، سلم : حيا ، سالم : دخل في السلم ، أسلم : أذعن ومنها كلمة الاسلام : الأذعان ، تسلم : تقبل ، سلام : تحية ، سليم : صحيح ، استلام : مصدر التقبل ، الاستسلام : الانقياد ، مسلم المؤمن بالاسلام ، المستلم المتقبل ، مسالم مائل الى السلام وهلم جرا الى مالا نهاية له تقريبا ، وفق ذلك يجري التصريف على نظام متسق جدا بحيث اذا مرت بالقارئ صيغة جديدة استطاع أن يستنبط بوجه العموم معناها من سياق الكلام . ويسع دارسي اللغة العبرية أن يفهموا ذلك كدارسي اللغة العربية الا أن طواعية العربية تفوق جدا طواعية العبرية\* .

★ يلاحظ أن المؤلف أخذ كلمة استلم بمعنى تلقى وتقبل وهو معنى عامي لا أصل له باللغة العربية . والمعنى الصحيح استلم بمعنى عاق أو قبّل وثمت معان أخرى لاستلم كاستلم الزرع اذا خرج سنبله أو استلم الخف قلميه أي لينهما . - المترجمة .

٢٣- بالرغم مما يريد أن يؤمن به المسلمون لم يكن الرسول معصوما عن الخطأ . وفي القرآن جمل متعددة كان بوسع النعاة أن يعتبروها غير صحيحة لو وجدوها في أي كتاب آخر . ومع ذلك لعلة من التعسف ومن التحذلق الإلحاح على هذه النقطة إذ من السهل أن يجد المرء ألوانا من اللحن والعجمة في أي أثر أدبي رائع . ووجود هذه الأخطاء في الكتب المقدسة لا يناقض كمال الله بل أن تفسيرها أسهل من تسويغ وجود الشر في العالم لأن هذه الكتب المقدسة انما كتبها ونقلها البشر\* .

★ لا ينتظر من أعجمي أن يفهم اللغة مثل كبار العلماء الذين لم يكن لهم مثيل في الاطلاع وسعة الدراية وقد قضوا حياتهم في الإعجاب بمعجزة البيان في القرآن التي كانت تحدياً للعالمين . وقد افاض علماء العرب بذلك وكتبوا الكتب المطولة . وربما كان معذورا شخص تعلم اللغة العربية ، دون أن يتقنها ، أن يظن ذلك ، لأنه لا يستطيع فهم كلام العرب القديم بله القرآن الكريم . والأخطاء التي يشير اليها المؤلف لا شك أنه لم يفهم وجوه البلاغة فيها كما شرحها المفسرون . وورودها في القرآن الكريم وتلقي العرب لها دليل على صحتها وأصالتها لأن السماع في اللغة هو الأصل فهو حجة على النحويين شأنه في ذلك كشأن كلام العرب الفصحاء وليس النحويون حجة على كلام العرب بله القرآن الكريم - المترجمة .

٢٤- هذا غير صحيح لأن المسلمين منذ بداية أمرهم فكروا في تحرير اخوانهم العرب من سلطان الروم وسلطان فارس وكذلك في القرآن اشارات كثيرة الى رسالة الرسول العالمية .  
ثم ان التعبير غير دقيق فان فريضة الحج وحي الى الرسول ورد في القرآن الكريم - المترجمة .

٢٥- أبو الفداء ( في النصف الأول من القرن الرابع ) الملك المؤيد صاحب حماء والرحالة ابن بطوطة ( في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ) راجع ما يتعلق بجعها ما ورد في كتاب ( Introd. 3, 794, 1616 ) .

٢٦- ابن عربي ولد في مرسية وانتقل الى اشبيلية ثم قام برحلات ، ولعل المؤلف نسبته الى اشبيلية مجرد اقامته فيها حيناً من الزمن - المترجمة .

٢٧- يجب أن نضيف هنا أن العمل الجسمي الذي يتباطأ بفعل الحرارة يصبح تباطؤه مضاعفا ويتناقض الى حده الأدنى إذا اجتمع الصوم وعنف الفصل معا فيصبح رمضان بمقتضى الأمر موسما لبعض الراحة كما يكون موسم حماسة دينية .

٢٨- « يا أيها الذين آمنوا انما الغمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .  
( القرآن - السورة الخامسة - الآية ٩٠ ) سورة المائدة . أن كلمة الغمر تفيد كل ما يخدر ويسم الفكر . قال رسول الله : « كل شراب أسكر فهو حرام » ( البخاري ٧٤ : ٣ ) وقال أيضا : « كل ما أسكر كثيره فقليله حرام » ( أبو داود ٥: ٢٥ ) .

٢٩- أن شرب الغمر لا يسبب الارتداد عن الدين وانما هو كبيرة ومرتبتها فاسق عند أهل السنة والجماعة وهنالك خلاف عند المذاهب الإسلامية في أمر شربها - المترجمة .

٣٠- في القرآن الكريم تنويه بصفة القرآن العربية . ولما كان في بلاغته واعجازه كامل البيان لزم أن يفهمه العرب وأن يسلك سبيله الى قلوبهم وليس بأعجمي فيمتنع عليهم فهمه . أما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد أوتي جوامع الكلم . والإحاديث التي وردت في هذا الشأن كما أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال قال رسول الله : أنا عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي ، وكما أخرج الطبراني أيضا في الكبير والأوسط والحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أحب العرب لثلاث لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي . لم يتفق علماء الحديث على صحته . وقد ورد في الجامع الصغير للسيوطي برقم ( ٢٢٥ ) : أحب العرب لثلاثة لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي . وذكر المناوي في ( فيض القدير ) قول العقيلي عن الحديث أنه منكر لا أصل له . وقول الهيثمي أنه ضعيف وقول ابن العاتم وابن الجوزي أنه موضوع وظن الذهبي فيه أنه موضوع أيضا . فليرجع الى فيض القدير للاطلاع على موطن الضعف في اسناده . ثم أنهى المناوي التعليق عليه بقوله : وأما قول السلفي هذا حديث حسن فمراده به كما قال ابن تيمية حسن متنه على الاصطلاح العام لا حسن اسناده على طريقة المحدثين - المترجمة .

٣١- أن الفرق بين القرآن والعهد الجديد شاسعة جدا . وذلك يعود الى أن القرآن صدق به وتلاه الرسول نفسه وقد كان يعلم تمام العلم ماذا ينبغي فاشتمل القرآن على جميع المسائل الجوهرية في حياة المسلم من دين وتوحيد وشرعية وتقويم ولغة . أما العهد الجديد فلم يمس قضية اللغة وإذا طوينا صفحا عن ألف لغة نقل اليها الانجيل يكفي أن نذكر أن الكنيسة الكاثوليكية قد نجحت تقريبا في احلال لغة أخرى ( مقدسة ) وهي اللاتينية محل لغته الأصلية . وكذلك لم يبتكر الانجيل تقويما جديدا . انما أدخل التاريخ المسيحي راهب سيثي من النصف الأول من القرن السادس يدعى ديونيسيوس ايكسيفوس وكان قبوله تدريجيا فائرا .

٣٢- هكذا يرى المستشرقون أما الواقع فإن انتشار الاسلام كان في البداية قائما على الدعوة الحسنة والرفق ومنع الظلم . وقد تعرض المسلمون الأوائل لألوان متفاوتة من الاضطهاد والتعذيب وأمثالهما مما هو معروف في تاريخ الاسلام فلما توحد العرب بالاسلام في الجزيرة اتصل توحيدهم بالسعي الى تحرير العرب الذين كانوا يقاسون الاضطهاد تحت حكم بيزنطة من جهة والفرس من جهة ثانية في سورية وما بين النهرين وكذلك تحرير اخوانهم في شمالي افريقية . لقد أتى الاسلام بقيم جديدة تؤكد العدالة والمساواة بين الناس ورفع الاستغلال والتمييز والتفرقة العنصرية ودعم ما أثلته المسيحية من قيم صحيحة ومكافحة الشرك وهلم جرا . والدليل هو أن العرب في سورية والعراق مدوا أيديهم الى اخوانهم وأعانوهم عند قدومهم على تحرير تلك البلاد . ولقد بقي الرومان مدة طويلة في شمالي افريقية فما استطاعوا ادخال لغتهم المغايرة للغة الشعب الأصيل في تلك المواطن وكانت لهجة قريبة جدا من لهجات العربية وهذا ما يدل على سرعة اجتياح العرب المسلمين تلك البلاد اذ قدموا رافعين لواء التحرير وشعائر انسانية جديدة كريمة - المترجمة .

٣٣- كلما وهن التمييز لدى الباحث وغفا الفكر الناقد عنده فتوارت عنه بعض الأسباب التي لم ينفذ الى جوهرها عمدا الى الكلام على الحظ ولذلك لا نجد كلمة الحظ هنا الامتقمة في تفسير منطوق تاريخي مبرم . ولم تكن بيزنطة ولا فارس اذ ذاك على درجة الضعف التي يصورها المؤلف بل كانتا ذاتي قوة ويسار كبيرين . والشجاعة من سمات العرب ولكن لا يمكن أن ننكر وجود الجبن المتخاذل بينهم . فالشجاعة صفة عالية للمرء ولكن التنظيم الاجتماعي والأهداف

الرفيعة المشتركة تزيد في شجاعة الشجاع وتحول دون انهزام الجبان والفضل في شجاعة المسلمين حسن تنظيمهم وقوة مثلهم العليا التي كانوا ينشدونها • ان الشخص الذي يسلك الغاب في الليل وحيدا مثلا دون ان يعرف درويه لا بد ان يساوره الخوف ولكن الشخص الذي درس مواقع الغاب وعرف مسالكه حق المعرفة يعرف كيف يجتازه بسلام ولو كان اقل شجاعة فالشجاعة تتوطد بالعلم والادراك والعقل والتنظيم • وهكذا يبدو لنا كلام المؤلف فيه شيء من الاعتبارات العامة اذ يتكلم على الحظ والشجاعة وكأنه سمع بسيرة عنتر بن شداد • - المترجمة •

٣٤- يستعمل هنا المؤلف كلمة العاصفة ولقد حملت تلك العاصفة اذا اردنا استعمال اللفظ نفسه الفيث المدرار المخصب الى تلك الربوع وذلك بنشر العلم والثقافة وهو الموضوع الذي يعالجه المؤلف ، ولذلك نراه مسرفا عند استعمال لفظ العاصفة وكان يمكن ان يقول : « فما كان يوسع كلتا الامبراطوريتين ان يلبث فسادهما امام انبلاج الحق • »  
ان فتح الشام والعراق كان كما اسلفنا في حقيقته تحرير للعرب الذين كانوا يكابدون العناء من سيطرة الروم والفرس واستبدادهم بهم وطفانهم عليهم • فلم يكن ذلك من غسانة الشام ومناذرة العراق خيانة لبيزنطة ولا لفارس بل كان ذلك وفاء لقوميتهم وتشوفا للقيم الرفيعة من حق وعدالة ورفق واحسان وغير ذلك مما بشر به الدين • - المترجمة •

٣٥- هذا ابعد ما يكون عن الصواب لان النازية قائمة على التمييز العنصري وعلى النار والحديد ولذلك اخفقت وكانت كالبرق الخلب او كالصاعقة احرقت الاخضر واليابس في بلاد اوروبية ، على حين كان الاسلام دعوة لقيم انسانية صحيحة ولذلك اتسع واستنار به الناس وكان رحمة لكثير من الاقوام وتوكدت جذوره في الارض ( فاما الزيد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ) • حتى من جهة السرعة لا يجوز هذا التشبيه لان الفرق واضح بين الدعوتين من جميع الجهات ( ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ) ولم يقل بالنار والقتل والاضطهاد • - المترجمة •  
٣٦- للحصول على تفاصيل اوفر راجع كتاب فيليب حتي

Philip Hitti : History of the Arabs (London 1937, Isis 28, 503-04) 4th ed.

نقل كتاب فيليب حتي في طبعته الرابعة الى العربية في ثلاثة اسفار طبع بيروت ١٩٤٩ - ١٩٥١ - المترجمة •

٣٧- هذا التشبيه خاطيء من اساسه لان العرب بنت وشيدت ولم تخرب • ونقلت نور الانسانية لا ظلام الظلم والاضطهاد • ثم ان العرب حتى قبل الاسلام كانوا اصحاب مثل عالية والشعر العربي ينطق بذلك كما ان بعض الاحلاف التي سبقت ظهور الاسلام كحلف الفضول تشف عن تحسس عميق بالمساواة ومنع الضيم ورفع الحيف • وقد حاول المؤلف ان يدحض ذلك التشبيه لينتهي الى نتيجة اخرى لا نقره عليها فيها شيء من التكلف وبذر الشقاق بين دينين متتامين • - المترجمة •

٣٨- هذا ايضا ابعد ما يكون من الصحة لان الاسلام كان دعما للمسيحية وتصديقا لما بين يديه من التوراة والانجيل • فلم يكن هنالك نصر وانما كان هنالك تأكيد للقيم المسيحية • ودليل آخر على ذلك هو ان الاسلام انما اعاد الى الروم في صراعهم مع فارس المشتركة وأعلن قرب انتصار الروم على فارس وكانت تلك احدى معجزات القرآن الكريم ( انظر سورة الروم ) • - المترجمة •

٣٩- لقد بالغ السير توماس ارنولد ( ١٨٦٤ - ١٩٣٠ ) في وصف تسامح المسلمين مع الشعوب الاخرى التي تدين بعقائد مختلفة في كتابه :

The Preaching of Islam : A History of the Propagation of the Muslim Faith (London 1896 reprinted 1913).

وذلك لرغبته العميقة في كسب صداقتهم • وغالبا ما يستشهد المدافعون عن الاسلام بالآية ( « لا اكراه في الدين » القرآن ٢ ، ٢٥٧ ) الا ان هذا ناقضه آيات اخرى في القرآن وفي الاحاديث تشرح فريضة جهاد الكفار (Introd. 3, 1274, 1722, 1862) ، وعلى هذا يمكننا ان نرسم للمسلمين صورة ناصعة البياض او حالكة السواد ومثل هذا يصدق على المسيحيين ايضا \* .

\* ينس المؤلف دائما ان يفرق بين الشرك وعبادة الأوثان من جهة وبين الديانات السماوية كالمسيحية من جهة اخرى التي دعمها الاسلام كما يمر بسرعة على شناعة محاكم التفتيش وحروب الاستعمار •

٤٠- لم تكن الدولة العربية الاسلامية في أساس مبادئها تشبه في شيء امبراطورية رومة ولا امبراطورية القسطنطينية ولا امبراطورية فارس ولذلك مثل هذا التعبير مبالغ فيه - المترجمة .

٤١- وذلك في حكم الامبراطور موتسو هيتو ( ١٨٦٨ - ١٩١٢ ) الذي دام أقل من نصف قرن . وكان هذا العهد اقصر مدة من عهد تمثل العرب للثقافة اليونانية . وهذا امر طبيعي فكل شيء كان ابطا في العصور الوسطى وما كان للعرب تلك الأدوات المدهشة التي تزيد في سرعة كل عملية تربية ( كالمطابع والمحرركات البخارية والبرق وغيرها ) . هذا ويجوز أن نقايس تمثل اليابانيين الأوائل للثقافة الصينية بتمثل العرب للثقافة اليونانية في طول المدة . ولكن تمثل اليابانيين وقف عند ذلك الحد على حين أن المكاسب العربية كانت حلقة في تطور حضارتنا نحن ، ولذا جاز أن نهمل الثقافة اليابانية الا أننا لانستطيع أن نضرب صفحا عن الحضارة العربية دون خسارة .

٤٢- أفضل الأمثلة على اعتساف التأويل جاء به الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الكبير ( الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٢٦ مجلدا ١٩٢٢ وما بعده ) وفي كتب أخرى أحدها ( التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم ) ( ١٩٠٦ ) وهو على ما يبدو مختصر لمؤلف آخر أكبر حجما وقد ترجم إلى الفارسية والتركية . راجع كتاب : Charles Clarence Adams : Islam and Modernism in Egypt. (p. 245, 1933).

نقل الى هذه المعلومات زميلي في جامعة كولومبيا السيد آرثر جيفري ( في رسالة مؤرخة : نيويورك ١٥ آذار ١٩٥٠ ) .  
★ انتهت تحشية المؤلف ونحن نرى أن القرآن كتاب وحي وإرشاد ومخاطبة لعقول العرب والأمم لحملها على السبيل الاقوم ولذلك لم يكن بحاجة الى معالجة القضايا العلمية رياضية وكيمائية وغيرها . بيد ان الوحي والالهام العميقين قد يعملان في تعبيرهما أمورا علمية تستعري الانظار وتستدعي الإعجاب . من ذلك مثلا الآية الكريمة « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة » فربما يستغرب القارئ أول الأمر إيراد الحجارة وقودا للنار لأن الحجارة من شأنها أن تطفئ النار ولكن الفيزياء الحديثة تبين لنا ان الحرارة اذا كانت عالية جدا كما هي الحال في الشمس مثلا تشابهت الأجسام وكانت في حالة تسمى البلازما بحيث تتولد الحرارة عن تفاعلات نووية فيها . وكذلك ورود المهمل « يوم تكون السماء كالمهل » وأيضا « كالمهل يغلي في البطون » وأيضا « كالمهل يشوي الوجوه » وله عدة معان . والغريب أن بعض المفسرين رأوا أنه الفضة المذابة ومن المعروف في الفيزياء الحديثة ان الأجسام التي هي في جدول مندلييف ما كان قبل الفضة منها كان ميالا الى الالتحام والانضمام وما كان بعدها جنح الى التقوض والانقسام فالفضة بهذا الاعتبار أثبت المعادن نوعا .

وكذلك ألا نعجب من الآية الكريمة التي تشير الى حركة الأرض اشارة لطيفة قبل ما ذكره بعض علماء العرب أمثال السجزي وقيل كوبرنيكوس وكبلر بقرون طويلة : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء » . ولكن القرآن مع ذلك لم يكن كتاب فيزياء ولا فلك وإنما هو وحي وإرشاد وهداية . هذا وربما كان يريد المؤلف أن ممارسة الخلفاء الراشدين للعلوم ، واقتضاءهم ذلك أمر غريب ولكن الأمر الذي لا جدال فيه هو أن القرآن والرسول والخلفاء رفعوا من شأن العلم ما لم يرفعه عهد آخر . وتنويه القرآن بمكانة العلم ورفعه درجات العلماء معروف وكذلك أحاديث الرسول التي تحث على طلب العلم ولو كان بالصحين وتعدده فريضة على أبناء المجتمع . ان طلب العلم ونشره كلاهما فرض في الاسلام . ونحن نعذر المؤلف لعدم تنويهه بذلك وربما لم يتسع له الوقت في محاضرة موجزة لكي يتطرق لهذه القضية . - المترجمة .

٤٣- في بحوث أكثر المستشرقين بقاية عرقية متصلة قائمة على التمييز بين الأمم واعطائها خصائص ثابتة وقد كشفت البحوث الاجتماعية الحديثة خطئ ذلك وسوء مغباته - المترجمة .

٤٤- للاطلاع على بعض مصاعب المصطلحات انظر :

Amélie Marie Goichon : Lexique de la langue philosophique d'Ibn Sinā (510 p.) Paris 1938; (Isis 33, 326-29).

أما اليوم فان ابتكار مصطلحات تقنية جديدة باللغة العربية يعود الى الظهور بشكل ملح . والحاجة الى ترجمة عدد هائل من الكلمات تجعل الحلول الجيدة لا تتوافر في كل الأحيان على الرغم من طاقات اللغة العربية الفنية . وهكذا فان اللغة العربية الحديثة محشوة بالهجين من الكلمات شأنها في ذلك شأن اللغة الانكليزية الحديثة . راجع فيما يتعلق بالمصطلحات الطبية القاموس المتقن الذي أعدته وزارة التربية المصرية .

Mohammed Sharaf : English - Arabic Dictionary of Medicine, Biology and Allied Sciences (quarto 1048 p, Cairo 1929; Isis 14, 537).

وتتكرر الصعوبات نفسها بالطبع كلما نقلت مجموعة من المعارف الى لغة غير مهيأة لذلك . لقد واجه امثال هذه الصعوبات العلماء الذين ترجموا من العربية الى اللاتينية وعاناهم علماء ( الميجي ) الذين نقلوا عن اللغة الانكليزية ( وعن لغات اوروبية أخرى ) الى اليابانية . وكل حال تساعد على تفسير الاحوال الأخرى وقد شرح مشكلة الترجمة اليابانية بوضوح عظيم .

Sir George Bailey SanSom : The Western World and Japan (P. 399-404; New York 1950; Isis 41.

٤٥- ينبغي التفريق بين علي الطبري ومحمد الطبري المشهور ( في النصف الأول من القرن العاشر ) مؤلف الكتاب المتقن العام في التاريخ وصاحب التفسير العظيم . لقد كان تعليقي عن الكاتب الأول في (Introd. 574) غير وافي لأنني كنت في عام ١٩٢٧ لا أعرف كتابه « فردوس الحكمة » الذي طبعة في السنة التالية M. Z. Siddiqi ( برلين ١٩٢٨ ) راجع التحليل الذي كتبه (Isis 16, 6-54) Max Meyerhof . أما تعليقي الذي كتبتة عن رشيد الدين بعد عشرين عاما فهو أطول وأوفى بالمطلوب (Introd. 3, 969-76) .

٤٦- (Introd. 3, 133, 797-98) .

٤٧- يقول بعض الأمريكيين عن سكان مين أنهم يعيشون « هناك في الشرق Down East » و ( مين ) ولاية تقع في الشمال الشرقي من الولايات المتحدة وهذا اما أن يكون مجرد تعبير استعمله بعض الأمريكيين الذين في العاصمة او في المرتفعات الغربية واما أن يكون متعددا من زمن الفتوحات الاسبانية فلقد كانوا يستعملون الخرائط العربية التي تجعل الشمال في الأسفل . المترجم ) . ومن ناحية أخرى فإن بعض الكتب الصينية التي تبعت في آسيا الوسطى أو الشرق الأوسط تكون عناوينها كما يلي : أخبار البلاد الغربية Tsi yü t'u chi, Records of Western Couniries .

راجع (Introd. 1, 47-6) وراجع (Introd. 3, 2113) لمعرفة العناوين الأخرى التي مطلعها Hsi أي الغرب ( على أن الصينيين بهذه المناسبة واليابانيين كانوا قديما يسمون بلاد الشرق الأوسط الصين الكبرى ( داي شين ) وذلك في الفترة التي تالقت فيها الحضارة العربية الاسلامية - المترجم ) .

٤٨- كان عصر قرطبة الذهبي في عهد السلالة الأموية ( ٧٥٦ - ١٠٣١ ) وخاصة في القرن العاشر . ثم غدت قرطبة منذ عام ١٠٩١ الى ١١٤٧ تحت سلطان سلالة المرابطين ( من البربر ) وكان ثالث ملوكها علي ( بن تاشفين ) الذي حكم منذ ١١٠٦ - ١١٤٣ .

٤٩- راجع ما كتب عن ابن رشد ( ١١٢٦ - ٩٨ ) في (Introd. 2, 355-61) وعن ابن ميمون ( ١١٣٥ - ١٢٠٤ ) (Introd. 2, 369-80) وعن الايتالي القديس توماس الأكويني ( ١٢٢٥ - ٧٤ ) (Introd. 2, 914-21) .

وقد سبق أن تكلمنا على قرطبي آخر وهو سينيكا . وانه لفضل كبير لهذه المدينة أن تهب للعالم ثلاثة رجال يمثل هذه العظمة وأطرف ما في الأمر انه لم يكن من بينهم مسيحي واحد .

٥٠- كان اليهود الذين يعيشون في دار الاسلام يكتبون بالعربية ولكن بحروف عبرية . أما لغتهم العبرية فكانت مقصورة على أمورهم الدينية . وقد كتبت أولى قواعد النحولغة العبرية باللغة العربية . كما أن كتب النحو العبرية في أمريكا تطبع على الأغلب بالانكليزية ( الغامادة ) .

٥١- ان أول مترجم عظيم من العربية الى اللاتينية هرقسطنطين الافريقي ( في النصف الثاني من القرن العاشر ) . ولد في قرطاج وتالق في مونت كاسينو منذ عام ١٠٥٦ م حتى موته عام ١٠٨٧ م وخلال القرن الثاني عشر والثالث عشر ترجمت الكتب العربية شيئا فشيئا الى اللاتينية وبهذا انتقلت الكنوز العربية اليونانية الى الغرب المسيحي وازدادت تبعا لذلك مكانة العرب عند الغرب وبلغت ذروتها تقريبا في غرة القرن الثالث عشر .

٥٢- ان غارات تيمورلنك الوحشية على الشرق الأوسط في نهاية القرن الرابع عشر (Introd. 3, 1467-74) دمرت بعض المدن الرئيسية في الشرق الاسلامي ( بغداد دمشق وحلب وغيرها ) وكانت ضربة قاصمة تقريبا لسورية ولكنها أبقّت على بلاد اسلامية أخرى كالجزيرة العربية مصر اذا لم نذكر المغرب الاسلامي وما كان لتيمورلنك أن يصيب الحضارة الاسلامية على هذا النحو من العمق لكانت هذه الحضارة فياضة زاخرة بالحياة وقت مجيئه .

٥٢- لهذا السبب اتخذت تركية الحديثة موقفا غير اسلامي . كتب تاريخ الرياضيات العثمانية صالح زكي جزءان بالتركية (2 Vols in Turkish, Istambul 1911, Isis 19, 506-15)

وكتب تاريخ العلم العثماني : عبد الحق عدنان اديوار (In French, Paris 1939, Isis 32, 186-39)  
ولهذا الكتاب طبعة جديدة موسعة بالتركية (Istambul 1943, Isis 38, 21-25) .

٥٤- ان ابن النفيس ( في النصف الثاني من القرن الثالث ) كان طبيبا مصريا او سوريا وتوفي في القاهرة ( لا في دمشق ) عام ١٢٨٨ . راجع

Sarton : Introd. (2, 1099-1101). Max Meyerhof : « Ibn an-Nafis and his theory of the lesser circulation (Isis 23, 100-20, 1935).

ويعد Joseph Shacht طبعة وترجمة جزئية بالانكليزية لفاضل بن ناطق (Isis 37, 194)

٥٥- انظر ما يتعلق بابن طفيل ( في النصف الثاني ) من القرن الثاني عشر ( Introd. 2, 354 ) . وقد اعد احسن طبعة لحي بن يقظان المرحوم Léon Ganthier مع ترجمة فرنسية (Beyrouth 1936, Isis 30, 100-03) .

٥٦- يوسيبوس القيساري Eusebius of Caesarea ( في النصف الاول من القرن الرابع ) ولد في فلسطين وكان اسقفا على القيسارية بفلسطين من عام ٣١٣ حتى وفاته عام ٣٤٠ (Introd. 1, 357) وهو احد رجالات الشرق الأوسط المشهورين الكثيرين في العصور الرومانية .

٥٧- اشاد بمثل هذا الدليل الفاسد ممثلو عدد من البلاذ المتسلطة ارادوا ان يظنوا ان انتصارهم ليس امرا عارضا وانما هو ببساطة ثمرة تفضل الله لهم وعاقبة تفوقهم الذاتي . ويعطي كتاب بوسويه « مقال في التاريخ العام Discours Sur l'histoire Universalle ١٦٨١ مثلا جيدا في هذا الموضوع .

٥٨- لا نملك - للأسف - كلمة للتمييز بين المؤلفات الكيميائية القديمة والجيدة كما هو الامر في تعبيري علم الفلك Astronomy وعلم التنجيم Astrology . فبعض المؤلفات الكيميائية العربية تحوي اصول الكيمياء وبعضها الآخر مشحون بالافكار السحرية وبعضها الآخر خليط من المعرفة الموضوعية ومن السحر معا .

٥٩- راجع عن ابن خلدون ( ١٣٣٣ - ٧٨ )<sup>x</sup> ما جاء في Introd. (3, 1766-79) . . وراجع في ص ١٧٧٢ ما دار من المناقشات حول آرائه في ظواهر ما بعد النفس .

★ ربما سها المؤلف فكتب تاريخ وفاته ١٣٧٨ وهي ١٤٠٦ .

٦٠- اخذ هذا الشاهد من مقدمة ابن خلدون الطبعة العربية ( الجزء الثالث ، ١٠٢ باريز ١٨٥٨ ) او من الطبعة الفرنسية ( الجزء الثالث ، ١٤٢ ، باريز ١٨٦٨ ) وورد ذكره في Introd. (3, facing 1019, 1777) .

٦١- ان المؤلفات التي تطرقت للخرافات العربية كثيرة . وللحصول على فكرة عامة راجع الموسوعة الاسلامية تحت كلمة ( كاهن ) ( ٢ ، ٦٢٤ - ٢٧ ) ، ( قيافة ) ( ٢ ، ١٠٤٧ ) ( سحر ) ( ٤ ، ٤٠٩ - ١٧ ) وكذلك راجع :

Isis (33, 298-99)

John Walker : Folk Medicine in Modern Egypt London 1934, Isis 24, 264).

وراجع فيما يتعلق بخرافات الصابئة وهي خلاصة خرافات الشرق الأوسط الكتاب الحديث الذي الفتته :

Mrs. E. S. Drower (Ethel Stefana Stevens) : The Book of the Zodiac (Royal Asiatic Society, London 1949).

اما بشأن الخرافات الامريكية فراجع :

Gilbert Seldes : The Stammering Century (New York 1928), Charles Wright Ferguson : The Confusion of Tongues (New York 1928),

Bart J. Bok and Margaret W. Mayall : « Scientists book at astrology » (Scientific Monthly, March 1941), (Isis 35, 181-82; 40, 79-81).

٦٢- كان الحكام أكثر تحررا من علماء الدين الا أنهم كانوا يضطرون الى الازعان للآراء الشعبية غير المعقولة التي غرسها أولئك . كان حكام الموحدين في المغرب مثلاً وهم مظنة التعصب هم الذين حموا حقاً أئمة الفلاسفة راجع :

Léon Gauthier : Ibn Rochd (Paris 1948; Isis 41, 104-06).

٦٣- كان يرين على العالم المسيحي في العصور الوسطى طائفة كبيرة من الخرافات راجع في وصفها :

Lynn Thorndike : History of Magic and Experimental Science (6 Vols. New York 1923-41; Isis 6, 74-89, 23, 471-75; 33, 691-712).

وقد عدل من هذه الخرافات المسيحية جملة من المعارف واللاهوت العقلي ( خاصة عند القديس توماس ) كانت تقوى يوما بعد يوم . وفي حين كان المذهب العقلي عند ابن رشد يتوارى ويعتجب في الشرق كانت دعائمه تتوطد في الغرب ويوفق بينها وبين المسيحية .

٦٤- راجع عن محمد عبده ( ١٨٤٩ - ١٩٠٥ ) : Joseph Schacht (Encycl. of Islam 3, 678-80, 1933)

والترجمة الفرنسية لرسالة التوحيد (Paris 1925; Isis 9, 456-57) .

٦٥- معرفتي بالمعاهد الأمريكية تقتصر على الجامعة الأمريكية الا أنها معرفة جيدة للغاية لأنني نلت شرف دعوتها ابان خريف وشتاء عام ١٩٣١ - ١٩٣٢ . وراجع التقرير الذي كتبته في Isis (19, 322-29, 1933) ويفضل مراجعة كتاب:

Stephen B. L. Penrose Jr. That They May Have Life the story of the AUB 1966-1941 (New York 1941, Isis 34, 40-41; 39, 7).

٦٦- ان لفظ ( الجمهور ) يشتمل على الأغنياء والفقراء معا فالأغنياء كالفقراء قد يكونون بحاجة الى النعمة والفضيلة .

